محمود شلبي

حياة رسول الله

دار الجيل
بيروت

دار الجيل
للنشر والطباعة والتوزيع

2005م ـ 1426هـ

ISBN: 9953-78-077-3

بيروت: البوشرية ـ شارع الفردوس ـ ص.ب. : 8737 (11)
هاتف: 689950 ـ 689951 ـ 689952 / فاكس: 689953 (009611)
E.mail: daraljil@inco.com.lb.
Website: www.daraljil.com
القاهرة: هاتف: 5865659 / فاكس: 5870852 (00202)
تونس: هاتف: 71922644 / فاكس: 71923634 (00216)

الإهداء

اللهمّ منكَ وإليكَ

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ما شاء الله ... لا قوة إلا بالله ...

لا تحسبن أن « حياة رسول الله » صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ... يمكن أن توضع فى كتاب كهذا صغير ...

لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ... وراء الإدراك ... وفوق العقول ...

وصدق الله تعالى : « اللهُ أعلمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالَتَه » ...

وإنما كان لهذا الكتاب الذى بين يديك ... قصة ... لطيفة ...

وقصته أنى كنت ذات يوم اقرأ السيرة الخالدة لابن هشام ...

فآنست حين قراءتها أنها شىء عظيم حقاً ... أوعت حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ... وجمعت ...

إلا أنها كتبت بمفاهيم عصرها ... الذى سجلت فيه ...

فرأيت أن أقدمها ... فى اختصار يناسب أذواق قراء اليوم ، ومفاهيم عصر الذرة والتليفزيون ...

فاستصفيت منها هذا الكتاب ... ووضعت فى اعتبارى ، أن يكون تركيزاً أميناً ... لتلك السيرة الخالدة ...

فجاء بحمد الله ... فيه من كل شىء ... فى تلكم السيرة ...

ويخلو من كل شىء فيها ... يثقل على أذواق اليوم ...

وأحسب أنه بذلك ... يحقق للقارىء أن ينعم بالجمال المكنون فى كتب الأقدمين ... ينساب إليه فى أسلوب سهل... يوشك أن يكون فى سهولة أسلوب صحافة اليوم ..

ولقد اهتديت فى ذلك بقوله تعالى : « ولقد يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فهلْ مِن مُدَّكِرٍ » ؟!

فالدعوة إلى الله، يجب أن تقدم إلى كل عصر ، بمفاهيم أهل ذلك العصر ... وهو المشار إليه فى قوله سبحانه : « بلسانِ قَوْمِهِ » .

وليس المراد باللسان اللغة فحسب ... وإنما أسلوب اللغة ... وكيفية أداء المعانى إلى الناس ... بحيث تتجه إلى قلوبهم وعقولهم ... دون أدنى عناء ...

لقد بذلت أقصى جهدى ... كى يكون الكتاب سهلا ... مع المحافظة على حقائق المرجع الأصيلة ...

ثم قطَّعته ... قطعاً قطعاً ... متجاورات ... وعنوت لكل قطعة بعنوان بارز ...

كل أولئك ... لأُذهب السآمة عن قارئه ... فلا يمل ولا ينسى ...

وكم من كتاب ... من كتب الأقدمين ... لو وَجَد من يقدمه إلى الناس... فى زينة العصر ... و « ديكور » اليوم ... لأقبلوا إليه يتسابقون ...

ولى مذهب فى عرض المفاهيم الإسلامية ... آخذ به نفسى ... وقد لا يوافقنى عليه فريق من الكاتبين ...

أن تُعرض تلك المفاهيم .. فى أسلس أسلوب .. وأسهل أداء .. وأنق صورة..

لأن عصرنا ... عصر السرعة ... عصر الصعود إلى القمر فى ساعات ...

هز أعصاب الناس هزاً عنيفاً ... فلا يستطيعون مع المطولات صبراً ...

فإن قيل : فليذهب أولئك مع الريح ... إنما نكتب للذين يريدون أن يصابروا ويصبروا مع أعماق الحقائق ...

قلنا : ليس من الحكمة فى شىء ما تقولون ...

بل نحببهم فى دينهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ...

ونسوق إليهم ما نسوق .. سوقاً جميلا ...

عسى أن يكون منهم ... مَن يُقبل على الله اقبالا طويلا ...

هنالك ... وبعد أن يتفتح قلبه ... سوف يبحث هو ... عن موسوعات الأقدمين ... ويغوص خلالها غوصاً ...

فالدعوة إلى الله ... فن ...

فن عميق ... وبحر سحيق ...

والتوفيق فيها ... علامته ... أن تحسن جذب ... الشاردين ... إلى الله جذباً لطيفاً ...

وكأيِّن من قلب شارد ... التقطه من بحر الفتن ... كتاب صغير ... أو تعبير عارض جميل !

فعسى أن يكون هذا الكتاب الذى بين يديك ... هو الزهرة الجميلة التى تحببك ... فى تتبع حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ... حيث شئت تفصيلا ..

وقد تكون السباحة فى « حوض السباحة » هى الباب الذى يدفعك إلى السباحة فى البحر المحيط !

محمود شابى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تلك هي قصة النبي صلى الله عليه وسلم ، اقتبسناها من مراجعها الأصيلة، وأخذناها من منابعها الصافية ، تترقرق كما يترقرق الماء المصفّى مع نسمات الربيع .

ولقد نظرنا فيما كتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قديماً أو حديثاً واستعرضناه ، وفكرنا فيه طويلا ، فما وجدت أعذب من سيرة ابن هشام ، ولا أحلى منها مذاقاً .

لا لأنها أطول السير ، ولا أجمع التواريخ ، ولكن لأنها تمتاز بقرب عهدها من صاحب السيرة نفسه ، وكلما كان الماء قريباً من المنبع كلما كان أصفى .

وتمتاز كذلك بجزالة اللفظ ، وفصاحة التعبير ، وبلاغة الإيجاز .

فهي تأتى بالصفحات الطوال فى ألفاظ قصار ، ومع هذا لم تخلّ ، ولم تفسد المعنى .

وتلك هي البلاغة العربية الأولى ، بلاغة قريش التى جاء القرآن يتحداها ويعجزها .

ولقد طربت طرباً كبيراً ، وأنا أتلو سيرة ابن هشام ، حين رأيتها على جانب من البلاغة كبير .

من أجل ذلك كانت هي مرجعي الأول فى هذا الكتاب .

ولقد تعمدت أن أحافظ على ألفاظها ، وأوردها بنصها ، لأن بلاغتها منقطعة النظير ، ولأنها حررت فى عهد قريب من النبي صلى الله عليه وسلم .

إلا أن تلك السيرة كتبت بما يلائم عصرها ، ويمضي مع ذوق الجماهير المسلمة في زمانها .

فهي تسجل أشعاراً طوالا ، وقصائد واسعة في كل حادثة ، وكل واقعة .

وما كنت لأمضي معها في أشعارها ، ولكن ألقيت بالشعر بعيداً ، غير آسف عليه ، لأن ذوق هذه الأيام ، أصبح يخالف أذواق سالف الزمان .

فإن شئت أن تقول : إن هذا الكتاب يحوي بين دفتيه « سيرة ابن هشام » فهو كما قلت ... ولكن بعد حذف الأشعار ، وحذف مالا جدوى فيه ، وحذف مايختلف فيه ، وحذف مالا يتفق مع روح العصر .

وكما قلت آنفاً ، إنني حافظت على ألفاظ سيرة ابن هشام لأحافظ على روحها العربية الأصيلة ، فإنني أقول : إنني تصرفت في بعض ألفاظها القديمة التي تشق على القارىء الحديث ، بحولتها إلى ألفاظ سهلة مألوفة للجماهير .

وثمة وجهة أخرى ...

تلك الوجهة ، هي أن الكتاب ليس ملخصاً لسيرة ابن هشام — وإن كان جامعاً لزبدة مافيها — ولكنه كتاب جديد عن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهو يتكلم عن حياته عليه السلام — من مولده إلى وفاته — ويسجل وقائع تلك الحياة تسجيلا صادقاً أصيلا .

فلا خرافات ... ولا خيالات ... ولا التواءات ... ولا انحرافات ... ثم هو بعد ذلك له منهجه فيما تكلم فيه أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهجه في ذلك ، أن أولئك أحقر من أن يقام لهم وزن ، أو يلقى إليهم بحديث .

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تطمسه ، وتطفىء نوره تلك الحشرات الدابة على الأرض .

إنما مثل محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الذين يريدون أن يطفئوا نوره ، كمثل صغار وقفوا فى خلاء ينظرون إلى الشمس فى يوم صحو ، فى الظهيرة ، فلما أن بهرت أعينهم بشعاعها ، وعجزوا عن فتح أعينهم فى قرصها ، قالوا لأنفسهم هلم ننفخها بأفواهنا ، فنطفىء نورها ، انتقاماً منها لأنها آذت أبصارنا !! .

تماماً ... أعداء محمد صلى الله عليه وسلم ، نظروا إلى نوره ، فإذا هو يسطع من الأرض إلى السماء ، فما استطاعوا أن ينظروه ، وما استطاعوا له إحاطة ، فوقفوا ينفخون بأفواههم ، ليطفئوا نور الله ، والله متم نوره ، ولو كره المجرمــون .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم من أن يطمس ، وهؤلاء أحقر من أن نشغل أنفسنا بالرد عليهم .

فكان المنهج من ذلك الكتاب فى تلك الناحية ، أن أمضى أقص على الناس قصة رسول الله ، فى صدق وصفاء ، وهى بذلك خير رد على هؤلاء ، وخير دليل على عظمة رسول الله .

وهذا الأسلوب هو أقوى دفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فما عليك إلا أن تجلى حياته للناس ، حتى إذا تلألأت فى السماء وقف أعداؤه ينظرون إليه وقد بهرتهم أنواره العالية .

فأنا لا أتعب نفسى ، ولا أتعب النــاس معى ، فى الرد على المستشرقين ، أو الرد على أعــداء الدين ، أو الرد على الملحــدين ، أو الرد على المتزلزلين من المسلمين .

ولكن أقول لهؤلاء وهؤلاء هذا هو محمـد صلى الله عليه وسلم ، هـذا رسول الله ، هذا هو ـ بغير « رتوش » أو نقص ، أو زيادة ـ فهل تنقمون منه من شىء ؟ وهل تعيبون منه أمراً من الأمور ؟ .

فسيقولون : ماعهدنا عليه إلا خيراً .

فأقول لهم : فذلك الذى تقولون فيه ماليس فيه .

ولست أريد من ذلك المذهب أن أقول بإهمال الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أريد أن أقول : إن ذلك مذهبى من هذا الكتاب وحده .

وليس يمنع ـ بعد ذلك ـ أن أكتب كتاباً مستقلا فى الدفاع عن رسول الله ودحض الشبهات التى ألقاها المجرمون من حوله .

بل إنى لأقول : إن ذلك الدفاع لازم وفرض عين على كل مسلم ، أن يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولكنى حريص فى هذا الكتاب ، أن أبرئه من القيل والقال وكثرة السؤال ، وأن أجعله يجرى إلى القلوب جريان الماء العذب إلى جوف الظمآن .

فعلى الذين يريدون القيل والقال ، والرد ، والسؤال ، أن يلتمسوا ذلك فى غير هذا الكتاب .

أما الذين يريدون رسول الله وحده ، فإنهم واجدوه فى هذا الكتاب ، وقارئوه بين ثناياه .

ولقد اضطربت اضطراباً كبيراً ، وأنا أتقدم للكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هل أكتب عنه كما يكتب المؤرخون ، كتاب وقائع وبدائع وصنائع ، ليس فيها من آثار الروح والعاطفة من شىء ؟ .

أم أكتب عنه كتاب إيمان وتصوف ، وحب وتدين ؟ .

فما وجدت لاتجاهٍ منهما من طعم ، وماوجدت لطريق منهما من مذاق ! .

فكيف السبيل إذاً ؟ .

كيف السبيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

هل أكتب عنه قصة ... نعم إن حياته أروع قصة ... ولكنه أعظم من أن يكون قصة ؟ .

هل أكتب عنه كتاباً فى التاريخ ... نعم هو أعظم ماعرف التاريخ ... ولكنه أسمى من أن يكون تاريخاً ؟ .

هل أحرر للناس سيرته ... نعم إن له لسيرة كما للناس سيرة ... ولكن سيرته شيء غير ماألف الناس من سير ؟ .

فما كان جواب نفسى إلا أن قالت : دعنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ... وخل بينى وبينه ... وسوف أقول عنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! .

ونادانى قلبى : حطم القيود ، ودمر السدود ، واتركنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسوف أعبر عنه التعبير الذى أحسه ، ولا أستطيع أن أنقله إلا إذا كنت حرًّا محرراً .

واستمعت إلى نداء نفسى ، وتسمعت إلى مناجاة قلبى ... وقلبت وجهى فى السماء ... حائراً ...

فلما تبين أنه الحق ... وانشرح له صدرى ، وقرت به عينى ... كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا أريد أن أكتب تاريخاً ، ولا تحليلا ، ولا قصة ، ولا سيرة ، ولا مدحاً ولا نقداً ، ولا تبويباً .

ولكن ماأحسه كرجل يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماأعتقد أنه الحق من قصة محمد صلى الله عليه وسلم .

كل ذلك فى انطلاق وانبثاق ...

انطلاق لايقيده إلا النص السماوى الذى لامرية فيه .

وانبثاق لايطمسه ظلام الألفاظ ، ولكن ينميه نور اليقين ، وحب الشخصية المكتوب عنها .

انطلاق ... وانبثاق .

وهذا هو الأسلوب من ذلك الكتاب .

والله أسأل أن يجعله شيئاً لديه مرضياً ، وأن يدخله إلى قلوب الناس مدخلا كريماً .

محمود شلبى

القاهرة فى { ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م

مَاذا قبل البعثة ؟

متى ولد؟

يوم الاثنين ... من شهر ربيع الأول ... فى الثانى عشر من ذلك الشهر .

وضعته أشرف عقيلة فى قريش ، آمنة بنت وهب .

وضعته يتيما !! .

لقد توفى أبوه ، عبد الله بن عبد المطلب ، وهو جنين فى بطن أمه !! .

ذلك أن عبد الله خرج إلى الشام ، إلى غزة ، فى عير من عيران قريش ، يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة .. وعبد الله ابن عبد المطلب يومئذ مريض . فقال : أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار . فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه ، فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله ، فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى النجار ، وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده ، الحارث ، فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة . فرجع إلى أبيه فأخبره ، فحزن عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ جنين ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة .

لقد توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه ... وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه .

وكان ذلك أول بلاء يواجه الطفل الوليد ... وإن كان لا يدرى شيئاً عن تلك المعانى ... إلا أن المقادير كانت تدرى ، وكانت تؤهله لأمر عظيم ! .

وألهمهم الله عز وجل أن سموه محمداً ... ليلتقى الاسم والفعل ، ويتطابق الاسم والمسمى ، فى الصورة والمعنى .

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

من لليتيم ؟

عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء ، فى سنة شهباء ، فقدمت على أتان لى قمراء كانت أذمّت[١] بالركب ، ومعى صبى لنا ، وشارف لنا ، والله ماتبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ، مانجد فى ثديى مايغنيه ، ولا فى شارفنا مايغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ، ضعفاً وعجفاً ، فقدمنا مكة ، فوالله ماعلمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه ، إذا قيل إنه يتيم تركناه . قلنا ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ . إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ . فوالله مابقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً غيرى ، فلما لم نجد غيره ، وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى ، والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال : لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً فذهبت ، فأخذته ، فوالله ماأخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته ، فجئت به رَحْلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ! . فشرب حتى روى ، وشرب أخوه حتى روى ! . وقام صاحبى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لحافل ، فحلب ما شرب ، وشربت حتى روينا . فبتنا بخير ليلة ، فقال صاحبى حين أصبحنا : يا حليمة ... والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة . ألم ترى مابتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ ! فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً ، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى مايتعلق بها حمار ، حتى أن صواحبى ليقلن : ويلك يا بنت أبى ذؤيب ،

---

(١) أى جاءت بما تذم عليه .

هذه أتانك التي خرجت علينا معنا ؟ ! فأقول : نعم ، والله إنها لهى . فقلن : والله إن لها لشأناً . حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فإن كانت غنمى لتسرح ، ثم تروح شباعاً لبناً ، فنحلب ماشئنا ، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن ، وإن أغنامهم لتروح جياعاً ، حتى إنهم ليقولون لرعاتهم . ويحكم ، انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب ، فاسرحوا معهم . فيسرحون مع غنمى حيث تسرح ، فتروح أغنامهم جياعاً مافيها قطرة لبن ! . وتروح أغنامى شباعاً لبناً ، نحلب ماشئنا فلم يزل الله يرينا البركة يتعرفها حتى بلغ سنتين ، فكان يشب شباباً لاتشبه الغلمان . فوالله مابلغ السنتين حتى كان غلاماً يقوى على الأكل . فقدمنا به على أمه ، ونحن أضن شىء به ، مما رأينا فيه من البركة . فلما رأته أمه ، قلت لها : دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ، فإنا نخشى عليه وباء مكة . فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم ..

عودة الطفل إلى أمه

وعادت حليمة بالصبى حيث كانت تقيم ... ثم أعادته إلى أمه بعد شهرين أو ثلاثة ...

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته .

ولكن الأم تموت !

فلما بلغ ست سنين ...

ماذا حدث لليتيم الصغير ؟.

قدمت آمنة بنت وهب به على أخواله من بنى النجار بالمدينة ، تزيره إياهم ...

ثم ماذا ؟.

ثم ماتت أمه وهى راجعة به إلى مكة ؛ ماتت بالأبواء .

وتوفيت أمه آمنة بنت وهب ، وهو ابن ست سنين ! .

وصار الصبى اليتيم لطيماً . . . فاقداً لأبويه ! ! .

عبد المطلب يكفله

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطب بن هاشم ، بعد موت أمه آمنة بنت وهب .

فكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى ، وهو غلام قوى ، حتى يجلس عليه .

فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب ، إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً .

ثم يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره مايراه يصنع .

ورقّ عبد المطلب عليه رقّة لم يرقها على ولده ! .

وكان يقربه منه ، ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا ، وإذا نام .

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحياطته .

ثم مات عبد المطلب ، ودفن بالحجون .

وكان صلى الله عليه وسلم وقتئذ ابن ثمان سنين .

أبو طالب يكفله

فلما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يكون معه .

وكان أبو طالب لامال له ، وكان يحبه حباً شديداً لايحبه ولده !

وكان لاينام إلا إلى جنبه !

ويخرج فيخرج معه .

وكذلك جعل الله حب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فى شغاف قلوبهم ، وألقى عليه محبة منه ، فما رآه عبد المطلب إلا أحبه ، ومارآه أبو طالب من بعده إلا أحبه حباً شديداً .

بحيرى الراهب

ثم إن أبا طالب خرج فى رَكْب تاجراً إلى الشام .

فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع المسير ، صَبّ[1] به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقّ له ، وقال أبوطالب : والله لأخرجن به معى، ولايفارقنى ولا أفارقه أبداً .

فخرج به معه ، فلما نزل الركب بُصْرَى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بَحِيرى فى صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب إليه ، يصير علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلايكلمهم ولايعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك – فيما يزعمون – عن شيء رآه وهو فى صومعته : يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم .

---

(١) « صب به » : اشتد ميله إليه ، ورق قلبه له .

ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصَّرَت(١) أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم ، فقال : إنى قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضُروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

قال له رجل منهم : والله ، يابحيرى ، إن لك لشأناً اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيراً !! فما شأنك اليوم ؟

قال له بَحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول : ولكنكم ضَيْفٌ وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحداثة سنه ، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ من العمر ثنتا عشرة سنة ، تخلَّف فى رحال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بَحيرى فى القوم ولم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده قال : يامعشر قريش ، لايتخلفنَّ أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يابحيرى ، ما تخلف عنك أحدٌ ينبغى له أن يأتيك إلا غلاماً وهو أحدث القوم سناً ، فتخلف فى رحالهم .

فقال : لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعُزَّى إن كان لَلُؤْمٌ بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

---

(١) تهصرت : مالت وتدلت .

فلما رآه بَحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بَحيرى فقال له : ياغلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؟

وإنما قال له بَحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغْضَهما » .

فقال بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؟

فقال له : « سلني عما بدا لك » .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله : من نومه ، وهيئته ، وأموره .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته .

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ماهذا الغلام منك ؟

قال : ابني .

قال له بَحيرى : ماهو بابنك ، وماينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حُبْلى به .

قال : صدقت ... فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأَوْهُ وعرفوا منه ماعرفت ليَبْغُنَّهُ شراً ... فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمه أبوطالب سريعاً ، حتى أقدمه مكة ، حين فرغ من تجارته بالشام .

الأمين

ولقد شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءةً ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأعظمهم أمانةً ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزُّهاً وتكرُّماً ، حتى ما اسمه فى قومه إلا «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

يشهد حرب الفجار

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة ، هاجت حرب الفِجار بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قَيْس عَيْلان .

وكان الذى هاجها أن عُروة أجار لَطيمة(١) للنعمان بن المنذر .

فقال له البَرّاض بن قَيس : أتجيرها على كنانة ؟

قال : نعم ... وعلى الخلق كله .

فخرج فيها عُروة ، وخرج البراض يطلب غفلته ، حتى إذا كان بالعالية غفل عروة ، فوثب عليه البَرّاض ، فقتله فى الشهر الحرام ، فلذلك سمى الفِجار ، لأنه كان قتالا فى الشهر الحرام ، ففجروا فيه جميعاً .

فأتى آت قريشاً فقال: إن البرّاض قد قتل عُروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ . فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم ، ثم بلغهم الخبر ، فأتبعوهم ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، ودخلوا الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن .

ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون ـ أى ليس لهم أمير واحد يجمعهم ـ على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم .

---

(١) اللطيمة : الجمال التى تحمل المسك ، وإجارتها : أن يكون لها جاراً فيمنع التعدى عليها .

وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنت أنبُلُ على أعمامى » ، أى أرد عنهم نَبْل عدوهم إذا رموهم بها .

يتزوج

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خُوَيْلد .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم .

وكانت قريش قوماً تجاراً .

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مابلغها : من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له مَيْسَرَةُ ، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها مَيْسَرَة ، حتى قدم الشام .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ، واشترى ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة .

وحدثها ميسرة عن شمائله ومكارمه .

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة .

فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به ، بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : ياابن عم ، إنى قد رغبتُ فيك ، لقرابتك ، وشرفك فى قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

ثم عرضت عليه نفسها .

وكانت خديجة يومئذ أوسط نســـاء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالا .

كلُّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها إليه ، فتزوجها .

وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة .

وكانت أول امرأة تزوجهـا رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولم يتزوج عليها غيرها ، حتى ماتت رضى الله عنها .

فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد كلهم إلا إبراهيم .

ولدت له القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورُقَية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

وأكبرَ بنيه القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ، وأكبر بناته رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة .

فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهليـة ، وأما بنـاته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن ، وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم .

وأما إبراهيم فأمه مارية ، التى أهداها إليه المقوقس صاحب اسكندرية .

وكان عمر خديجة حين تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة ، وقيل خمساً وعشرين سنة .

يحتكمون إليه

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسـلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة .

فلما تم لهم هدمها ، جمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه .

كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا ، وتناصفوا .

فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها : يامعشر قريش اجعلوا بينكم ، فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ... ففعلوا .

فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

فلما انتهى إليه أخبروه الخبر .

فقال صلى الله عليه وسلم : « هَلُمَّ إلىَّ ثَوْباً » فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخُذْ كل قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى « الأمين » .

* * *

وهكذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله إلى الناس كافة .

حياة هادئة صافية .

فهو ابن الصحراء ، نشأ فيها أصولا وفروعاً .

والصحراء تطبع أهلها بالصفاء ، وتغرس فى أبنائها حب الحرية ، وحب الشجاعة ، وحب الكرم ، وحب السخاء .

هذا من ناحية البيئة التى نشأ فيها .

أما عن السلالة فهو ابن إبراهيم خليل الله ، ابن إسماعيل ذبيح الله ، ابن قريش سادة العرب ، ابن بنى هاشم سادة قريش .

ومتى اجتمع للانسان كرم الأصول، وكرم المنبت ، فهو الشجرة الطيبة فى الأرض الطيبة .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، يُصنع صناعة خاصة على عين ربه عز وجل .

فما من شىء يؤدى إلى جماله وكماله إلا أخذ به ربه إليه .

ومامن شىء يقربه من الإنسانية ، ويباعده من الكبر والجبروت ، إلاسلك الله به إليه سبيلا .

هذا أبوه يموت وهو جنين فى بطن أمه .

ثم هذه أمه تموت وهو ابن ست سنين .

فيجتمع عليه من فقده وموتها يتمان أليمان .

والنفس إذ تحزن تفكر وتتعمق تفكيرها ، فتهتدى من حزنها إلى حقائق كانت عنها لاهية .

ليس هذا وحده ، وإنما هناك بعد ذلك موت جده عبد المطلب ... فما بلغ صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين حتى ذهب عبد المطلب إلى ربه .

ففقد محمد صلى الله عليه وسلم بموته جداراً ضخماً كان يستند بظهره إليه .

ولم يقف البلاء برسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وإنما ساقه القدر إلى كفالة عمه أبى طالب الرجل الفقير ذى العيال !

فتألم صلى الله عليه وسلم ، وتعلم ، ولكنه لم يتكلم .

تعلم أن فى الحياة آلاماً لايحترق بنارها إلا من اصطلاها وعاناها .

وأن فيها ظروفاً هى أشق على النفس من لقاء الموت .

ولقد كان لزاماً ، وحتماً مقضياً ، أن يمر محمد صلى الله عليه وسلم بتلك التجارب .

وكان ذلك هو التمهيد لبناء إنسانيته الأولى قبل النبوة .

البعْـثـة

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة ، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً .

وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه .

وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه .

يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (وإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ من كتابٍ وحكمةٍ ، ثم جاءكُمْ رسولٌ مُصدّقٌ لِمَا معكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قال أأقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكم إصْرِى) أى : ثقل ماحملتكم من عهدى (قالوا أقْرَرْنَا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين) .

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له ، والنصر له ممن خالفه ، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين .

بدء الوحي

وكان أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، الرؤيا الصادقة .

لايرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح .

وحبّب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

وكان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تبعد عنه البيوت ، ويفضى إلى المواضع الخفية بين جبال مكة ، وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولاشجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله .

فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله ، وعن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى إلا الشجر والحجارة .

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فى حراء من كل سنة شهراً .

وكان ذلك مما تتعبد به قريش فى الجاهلية .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين .

فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به ـ إذا انصرف من معتكفه ـ الكعبة ، قبل أن يدخل بيته .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء ، كما كان يخرج لمعتكفه ...

حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جبريلُ وأنا نائم بنَمَطٍ من ديباجٍ فيه كتابٌ ؛ فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ، قال : فغَتَّنِى[1] به حتى ظننتُ أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ؟ ، قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال: اقرأ ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ـ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعودَ لى بمثلِ ما صنع بى ـ فقال : اقرأْ ، باسمِ ربك الذى خلق * خلق الإنسان من عَلَقٍ * اقرأْ وربك الأكرمُ * الذى علَّمَ بالقلمِ * علَّمَ الإنسانَ مالم يعلَمْ . قال : فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهَبَبْتُ

---

(١) غتنى: عصرنى عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة ، كما يجد من يغمس فى الماء قهراً.

من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً ، قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمدُ ، أنت رسولُ اللهِ ، وأنا جبريل ، قال : فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظرُ فإذا جبريلُ في صورةِ رجلٍ صافٍّ قدميهِ في أفق السماء ، ويقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال: فوقفتُ أنظر إليه ، فما أتقدَّمُ وما أتأخرُ ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، قال : فلا أنظرُ في ناحيةٍ منهـا إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفـاً ماأتقدمُ أمامي وما أرجِعُ ورائي ، حتى بعثت خديجةُ رُسُلها في طلبي فبلغوا أعلى مكةَ ورجعوا إليها ، وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني ، وانصرفت راجعاً إلى أهلي ؛ حتى أتيت خديجة ؛ فجلست إلى فخذها مضيفاً[1] إليها ؛ فقالت : ياأبا القاسم ، أين كنت ؟ . فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ! . ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت : أبشر ياابن عَمِّ واثبت . فوالذي نفس خديجة بيدِهِ إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ؛ ثم انطلقت إلى ورقة بن نَوْفل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصي وهو ابن عمها ؛ وكان ورقة قد تنصَّر ؛ وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع .

فقال ورقة بن نوفل : قُدوسٌ قدوس ؛ والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتيني ياخديجة ؛ لقد جاءه النَّامُوس[2] الأكبر الذي كان يأتي موسى ؛ وإنه لنبي هذه الأمة ؛ فقولي له فليثبُتْ .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل.

وفي رواية البخاري : . . . فرجع[3] بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) مضيفا : ملتصقا بها مائلا إليها . (٢) الناموس : الملك الذي جاءه بالوحي .
(٣) فرجع بها : بالكلمات التي ألقاها إليه الملك .

يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد . فقال : زملونى زملونى ، فزملوه، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله لايخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم ، وتقرى[1] الضيف ، وتحمل[2] الكل ، وتكسب[3] المعدوم وتعين على نوائب الحق[4]. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ....

أول من آمن

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على مايلقى من قومه من الخلاف والأذى .

وآمنت به خديجة ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ..

وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

لايسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها : تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس.

فتور الوحى

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من ذلك ، حتى شق ذلك عليه فأحزنه .

فجاءه جبريل بسورة الضحى ، يقسم له ربه — وهو الذى أكرمه بما أكرمه به — ماودعه ربه وماقلاه ، فقال تعالى : (والضحى . والليل إذا سجى.

---

(١) تقرى : تكرمه .

(٢) وتحمل : يعطى الفقير مايريحه من ثقل تكاليف عياله .

(٣) وتكسب : تبادر إلى إعطاء الفقير .

(٤) إذا وقعت نائبة لأحد فى خير أعنت فيها ، وقمت مع صاحبها حتى يجد قواما من عيش .

ماودعك ربك وما قلى) يقول : ماصرمك فتركك وما أبغضك منذ أحبك (وللآخرة خير لك من الأولى) أى : لما عندى فى مرجعك إلى خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا (ولسوف يعطيك ربك فترضى) من الظهور والنصر فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة (ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى) يعرفه الله ماابتدأه به من كرامته في عاجل أمره ، ومنه عليه فى يتمه وفقره وضلالته واستنقاذه من ذلك كله برحمته (فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر) أى لاتكن جباراً ، ولا متكبراً ولا فحاشاً ، فظاً على الضعفاء من عباد الله (وأما بنعمة ربك فحدث) أى : بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوة ، فحدث : أى اذكرها وادع إليها .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ماأنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوة سراً ، إلى من يطمئن إليه من أهله .

بداية فرض الصلاة

وافترضت عليه الصلاة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ؛ فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه السلام ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

أول من آمن من الصبيان ؟

ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى على بن أبى طالب .

وهو ابن عشر سنين يومئذ ، وكان مما أنعم الله على على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام .

أبو طالب يفاجئهما يصليان !

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة ، حرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا .

فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا .

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ياابن أخى ، ماهذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : « أى عم هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم » .

فقال أبو طالب : أى ابن أخى ، إنى لاأستطيع أن أفارق دين آبائى ، وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص إليك بشىء تكرهه مابقيت .

وقال أبو طالب لعلى : أى بنى ؛ ماهذا الدين الذى أنت عليه ؟ .

قال : ياأبت آمنت بالله وبرسول الله ؛ وصدقت بما جاء به ؛ وصليت معه لله ؛ واتبعته .

فقال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير ؛ فالزمه .

اسلام زيد بن حارثة

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب .

إسلام أبى بكر

ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة .

فلما أسلم أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وكان أبو بكر رجلا مؤلفاً لقومه ، مُحَبَّباً سهلا وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر .

وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف .

وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ؛ لعلمه ، وتجارته وحسن مجالسته .

فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له ، فأسلموا وصلوا .

فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام .

فصلوا وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله .

السابقون الأولون

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجرّاح ، وأبو سَلَمَة ، والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مَظْعُون ، وأخواه قدامةُ وعبد الله ابنا مظعون : وعبيدة ابن الحرث ، وسعيد بن زيد ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبى بكر ، وعائشة بنت أبى بكر ، وهى يومئذ صغيرة ، وَخباب بن الأرَتّ .

وأسلم عُمير بن أبى وقاص ، أخو سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارِىّ .

وأسلم سَليط بن عَمرو ، وأخوه حاطب بن عمرو .

وعياش بن أبى ربيعة ، وامرأته أسماء بنت سلامة .

وخُنَيْس بن حذافة ، وعامر بن ربيعة .

وعبد الله بن جحش ، وأخوه أحمد بن جحش .

وجعفر بن أبى طالب ، وامرأته أسماء بنت عُمَيْس .

وحاطبُ بن الحرث ، وامرأته فاطمة بنت المجلّل ، وأخوه حطّاب بن الحرث ، وامرأته فُكيهة بنت يسار .

ومعمر بن الحرث ، والسائب بن عثمان ، والمطلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبى عوف ، ونعيم بن عبد الله ، وعامر بن فُهيرة ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وخالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته أُمَيْنَةُ بنت خلف .

وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وواقد بن عبد الله .

وخالد وعامر وعاقل وإياس ، بنو البُكَيْر بن عبد ياليل .

وأسلم عمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان .

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا[1] ، من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدِّث به .

الجهر بالدعوة

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادى الناس بأمره ، وأن يدعو إليه .

وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به ، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه .

ثم قال الله تعالى له : (فاصْدَعْ[2] بما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عن المشركينَ) وقال تعالى : (وأَنْذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لِمن اتبعك من المؤمنين . فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىء مِما تعملون) .

أول دم فى الإسلام

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من قومهم .

(١) طائفة بعد طائفة .　　(٢) مافرق بين الحق والباطل .

فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة إذ اظهر عليهم نفر من المشركين ، وهم يصلون فناكروهم ، وعابوا عليهم مايصنعون ، حتى قاتلوهم .

فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بعظمة بعير فشجه فكان أول دم أهريق فى الإسلام .

بدء الصراع

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه ، وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته .

إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ؛ وهم قليل مستخفون .

وعطف على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مُظهراً لأمره لايرده عنه شىء .

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضيهم من شىء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم . ورأوا أن عمه أبا طالب قد عطف عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب .

فقالوا : ياأبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تُخَلِّى بيننا وبينه فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقاً ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماهو عليه .. يُظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم زاد الأمر بينه وبينهم ، حتى تباعد الرجال ، وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها .

وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضا عليه .

ثم إنهم مَشوا إلى أبى طالب مرة أخرى .

فقالوا له : ياأبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا . وإنا قد استَنْهَيناك من ابن أخيك فلم تنهَه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننُازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه . . .

فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، ولا خِذْلانه .

لو وضعوا الشمس فى يمينى ؟

ثم إن قريشاً حين قالوا لأبى طالب هـذه المقـالة بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ياابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولاتحمِّلنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء ، وأنه خاذله وَمُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعمّ والله ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترُكَ هذا الأمر حتى يظهِرَهُ الله أو أهلِك فيه ماتركتُه » .

ثم استَعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى . . . ثم قام . .

فلما وَلى . . . ناداه أبو طالب فقال : أقبِلْ ياابن أخى ، فقل ماأحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

أسلم إلينا ابن أخيك !

ثم إن قريشاً — حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسـول الله

صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم — مشوا بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : ياأبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى فى قريش وأجمله ، تخذه فلك ديته إذا قتل ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

قال : والله لبئس ماتسومُونى ! . أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ . هذا والله مالا يكون أبداً .

فقال المُطْعِم بن عَدىّ : والله ياأبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمُطعم : والله ماأنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومُظاهرةَ القوم علىّ ؛ فاصنع مابدا لك .

فاشتد الأمر ، وحميت الحرب ، وترك القوم ما كان بينهم من عهد ، وبادى بعضهم بعضاً .

بدء التعذيب ! !

ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على مَن فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه .

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين .. يعذبونهم ، ويفتنونهم عن دينهم .

ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب .

وقد قام أبو طالب — حين رأى قريشاً يصنعون مايصنعون — فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فدعاهم إلى ماهو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب ، عدُو الله الملعون .

ماذا نقول فى محمد ؟

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشرَ قريش ، إنه قد حضر هـذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيـه رأياً واحداً ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويَرُدَّ قولكم بعضه بعضا .

قالوا : فأنت ياأبا عبد شمس ، فقل وأقِمْ لنا رأياً نقلْ به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمعْ .

قالوا : نقول : كاهن .

قال : لا والله ، ماهو بكاهن ، لقدرأينا الكهان فما هو بزَمْزَمَةِ الكاهن لا سَجْعـه .

قالوا : فنقول : مجنون .

قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بِخَنْقِهِ ، ولاتَخَالُجِهِ ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : شاعر .

قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَهُ وهَزَجَه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر .

قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحَّار وسحرهم ، فما هو بنَفْثِهِمَ ولاعَقْدِهم .

قالوا : فما نقول ياأبا عبد شمس ؟ ؟ .

قال : والله إنَّ لقوله لحلاوة ، وإنأصله لعَـذق[1] ، وإن فرْعه لجناة[2] ، وماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيـه لأن

---

(١) العذق : الكثير الشعب والأطراف . (٢) لجناة . فيه ثمر يجنى .

تقولوا هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس — حين قدموا الموسم — لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره .

فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة ، وفى ذلك من قوله : (ذرنى ومن خلقتُ وحيداً . وجعلتُ له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً ثم طمع أن أزيدَ . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) أى : خصيما . (سأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إنه فكَّرَ وَقَدَّرَ . فقُتِلَ كيف قَدَّر . ثم قُتِلَ كيف قَدَّرَ . ثم نَظَرَ . ثم عَبَسَ وَبَسَرَ) بسر : كره وجهه . (ثم أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ . فقال إن هذا إلا سِحرٌ يُؤْثَرُ . إنْ هذا إلا قول البَشَرِ)

وأنزل الله تعالى فى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من الله تعالى ، وفى النفر الذين كانوا معه ، يصنفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما جاء به من الله تعالى (كما أنزلنا على المُقْتَسِمِين . الذين جعلوا القرآن عِضِين) أى أصنافاً (فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون) .

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرب وبلغ البلدان ذُكِرَ بالمدينة .

ولم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين ذكر ، وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس ، والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحْبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ، ومعهم فى بلادهم .

إيذاء رسول الله

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أسلم معه منهم ، فأغْرَوْا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم، فكذبوه . وآذوْه ، ورموْه بالشعر ، والسحر والكهانة والجنون .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله ، لايستخفى به ، مبادٍ لهم بما يكرهون : من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم.

وكان أشد مالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لاحر ولا عبد .

فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله فتدثَّر من شدة ماأصابه فأنزل الله تعالى عليه (ياأيها المدثِّرُ . قُمْ فأنذِرْ).

اسلام حمزة !

مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض مايكره ، من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره .

فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجارية لعبد الله بن جُدعان فى مسكن لها تسمع ذلك .

ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشّحاً قوسه راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له . وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم .

وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة .

فلما مر بالجارية وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : ياأباعمارة ، لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام ؟!

وجده هاهنا جالساً ، فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد !

فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعِدًّا لأبى جهل ، إذا لقيه ، أن يوقع به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً فى القوم فأقبل نحوه .

حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة .

ثم قال: أتشتمه ؟ فأنا على دينه ، أقول مايقول ، فرُدَّ ذلك علىّ إن استطعت .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل .

فقال أبوجهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عَزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

عرض الدنيا على رسول الله

قال عُتبة بن ربيعة يوماً ، وكان سيداً ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخى إنك منا حيثُ قد علمت : من المنزلة الرفيعة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونك . وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه ، لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال : « أقدْ فرغتَ يا أبا الوليد » ؟

قال : نعم .

قال : « فاستمع منى » .

قال : أفعل .

فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيلٌ مِّن الرحمن الرحيم . كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقوم يعلمونَ . بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهُمْ فهم لايسمَعون . وقالوا قلوبُنَا فى أكِنَّة مماَّ تدعونا إليْهِ) .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه .

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به !

فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورأى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يامعشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم : فإن تُصِبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يَظْهَرْ على العرب فمُلكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه !

قال : هذا رأيى ، فاصنعوا مابدا لكم .

يسألون عنه اليهود !

ثم إن قريشاً بعثت النضر بن الحرث ، وعُقبةَ بن أبى مُعَيْط إلى علماء اليهود بالمدينة .

وقالوا لهما : سَلاهم عن محمد ، وصِفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله .

وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما علماء اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ؛ فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل فرَوْا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ . فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبىّ ، وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّل ، فاصنعوا فى أمره مابدا لكم .

فأقبلا .. حتى قدما مكةَ على قريش ، فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ، قد أخبرنا علماء اليهود أن نسأله عن أشياء قد أمرُونا بها :

فإن أخبركم عنها فهو نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فرَوْا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عَجَب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبرُكم بما سألتم عنه غداً » .

ولم يقل إن شاء الله ...

فانصرفوا عنه ...

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسَ عشرَةَ ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجَفَ أهل مكة .

وقالوا : وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه .

وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف ، والروح .

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدَّث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتَوْا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر .

فقال قائلهم : (لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون) أي اجعلوه لغواً وباطلا ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبون بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

أول من جهر بالقرآن

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فَمَنْ رجلٌ يسمعهموه ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعونى ... فإن الله سيمنعنى .

فغدا ابن مسعود ، حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام .

ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته (الرحمن. علم القرآن)... ثم استقبلها يقرؤها .

وتأملوه :... فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟

ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد .

فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه .

فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غداً .

قالوا : لا ... حسبك ... قد أسمعتهم ما يكرهون .

التعذيب يشتد !

ثم إنهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه .. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين .

فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم ، بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ؛ فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ، ويعصمه الله منهم .

أحد .. أحد !!

وكان بلالٌ صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أُمية بن خَلَف يخرجه ـ إذا حميت الظهيرة ـ فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره .

ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللاَّتَ والعُزَّى .

فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحدٌ أحد !!

حتى مر به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون ذلك به .

فقال لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

قال : أنت الذى أفسدْته ، فأنقِذْه مما ترى .

فقال أبو بكر : أفعلُ ، عندى غلام أسود أجلَدُ منه ، وأقوى على دينك ، أعطيكه به .

قال : قد قبلت .

قال : هو لك .

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقه .

صبراً آل ياسر

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمَّار بن ياسر وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة .

فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ، موعِدُكُمُ الجَنَّةُ » .

فأما أمه فقتلوها ، وهى تأبى إلا الإسلام .

أبو جهل يتولى الجريمة

وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش .

إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنَّبه وخزَّاه ، وقال : دين أبيك وهو خير منك ؟! لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضَعَنَّ شرفك .

وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنُهْلِكَنَّ مالك .

وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به !

الهجرة الأولى إلى الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ، ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكاً لا يُظلَمُ عنده أحدٌ ، وهى أرضُ صِدقٍ ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ؟ » .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة : مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم .

فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام .

النجاشي يرفض تسليمهم !

عن أم سَلَمة ـ زوج النبي صلى الله عليه وسلم ـ قالت : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار ، النجاشي ، أمنّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولانسمع شيئاً نكرهه .

فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة .

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، فأمروهما بأمرهم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي ، فقبلها منهما ، ثم كلماه ، فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم .

فلما جاءوا ... وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا أناجيلهم حوله ... سألهم فقال لهم : ما هـذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ !

فكان الذى كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف

عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

— فعدد عليه أمور الإسلام — .

فصدقناه ، وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقال له جعفر : نعم .

فقال له النجاشي : فاقرأه علي .

فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) ، فبكي والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا أناجيلهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ...

فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار ... حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

اسلام عمر بن الخطاب

ولما قدم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردهم النجاشي بما يكرهون ،

وأسلم عمر بن الخطاب ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة .

وكان إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب - وكانت عند سعيد بن زَيد - وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر . وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً بسيفه ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين من بين رجال ونساء .

ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر ، وعلى ، في رجال من المسلمين ، ممن أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

فلقيه نُعيم بن عبد الله — وكان أيضاً يستخفي بإسلامه — فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً ... هذا الصابىء ، الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ !

قال : وأى أهل بيتى ؟

قال : ابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب . فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما !

فرجع عمر عامداً إلى أخته وزوجها ، وعندهما خبَّاب معه صحيفة فيها (طه[1]) يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسَّ عمر تغيب خبَّاب فى بعض البيت ،

(١) سورة طه .

وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها .

وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبَّاب عليهما ، فلما دخل قال :

اهذه الهينمة التي سمعت ؟ !

قالا له : ماسمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ...

وبطش بزوج أخته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضربها فشجَّها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها : نعم لقد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدا لك .

فلما رأى عمر مابأختِه من الدم ندم على ماصنع ، فارعوى ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً ، أنظر ماهذا الذي جاء به محمد .

وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليَرُدَّنَّها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ، إنك نَجَسٌ على شركك ، وإنه لايمسها إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها .

فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! !

فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه ، فقال له : ياعمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيِّدِ الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فالله الله ياعمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدُلّني ياخبَّاب على محمد حتى آتيه فاسلم .

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب .

فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر من خَلَلِ الباب ، فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فزِعٌ ، فقال يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأْذَنْ له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائْذَنْ لَهُ » فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بِحُجْزَتِه أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : « ماجاء بكَ ياابنَ الخطابِ ، فوالله ماأرى أن تَنْتَهِي حتى يُنْزِلَ الله بك قارعة ؟ » .

فقال عمر : يارسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم !

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة .

وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم .

قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أن أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة ، حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت ، قلت أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلى أبو جهل ، فقال : مرحباً ، وأهلا ياابن أختى ، ماجاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله

محمد ، وصدقت بما جاء به ، فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ماجئت به .

مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليـه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيـه على بنى هاشم ، وبنى المطلب : على أن لاينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم ، وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شِعْبه ، فاجتمعوا إليه .

وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العُزَّى إلى قريش ، فظاهرهم أى أعانهم .

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جهدوا ، لايصل إليهم شىء إلا سرًّا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ! .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً ، وسرًّا وجهاراً ، مباديا بأمر الله ، لايتقى فيه أحداً من الناس .

فجعلت قريش . يهمزونه ويستهزئون به ، ويخاصمونه ، وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم ، فمنهم من سُمِّى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار .

عودة المهاجرين

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنَوْا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل أحد إلا بجوارٍ أو مستخفياً .

نقض الصحيفة

مشى هشام بن عَمْرو إلى زُهَيْر بن أبى أمية فقال : يازهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبَس الثياب ، وتنكِح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لايباعون ، ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ، ولا ينْكح إليهم ؟! . أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ماأجابك إليه أبداً .

قال : ويحك ياهشام !! . فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله أن لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها .

قال : قد وجدت رجلا .

قال : من هو ؟ .

قال : أنا .

قال له زهير : ابغنا رجلا ثالثاً .

فلما تكامل الموافقون على نقض الصحيفة خمساً ، ذهبوا إلى البيت وأعلنوا نقضها .

فقال أبو جهل : هذا أمر قُضِىَ بِلَيْلٍ تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان .

الإسراء والمعراج

ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى ، وهو بيت المقـــدس ، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش ، وفي القبائل كلها .

وكان في مسراه ، وماذكر منه بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء ، لِيُرِيَهُ من آياته ماأراد ، حتى عاين ماعاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها مايريد .

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبُرَاق ـ وهي دابة تضع حافرها في منتهى طرْفها ـ فحمل عليها ...

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومضى جبريل عليه الســـلام معه ، حتى انتهى به إلى بيت المقدس ...

ولما فرغ من أمر بيت المقدس ، صعد إلى السماء .

ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس ، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ، ليرجع عليه إلى مكة .

فصعد من سماء إلى سماء حتى جاوز السابعة .

وكلما جاء سماء تلقته منها مقربوها ، ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء .

وذكروا أعيان من رآه من المرسلين ، كآدم في سماء الدنيا ، ويحيى وعيسى في الثانيـة ، ويوسف في الثالثة ، وإدريس في الرابعـة ، وهارون في الخامســة ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة .

ثم جاوز مراتبهم كلهم حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام .

ورفعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ... وغشيها عند ذلك أمور عظيمة ، ألوان متعددة باهرة ، وغشيها من نور الرب جل جلاله .

ورأى هناك جبريل له ستمائة جناح مابين كل جناحين كما بين السماء والأرض وهو الذى يقول الله تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى) أى مازاغ يميناً ولا شمالا ، ولا ارتفع عن المكان الذى حد له النظر إليه ، وهذا هو الثبات العظيم ، والأدب الكريم ، وهذه الرؤيا الثانية لجبريل عليه السلام على الصفة التى خلقه الله تعالى عليها .

وفرض الله سبحانه وتعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمته الصلوات ليلتئذ ، خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربه عز وجل ، حتى وضعها الرب جل جلاله إلى خمس ، وقال هى خمس وهى خمسون ، الحسنة بعشر أمثالها ، فحصل له التكليم من الرب عز وجل ليلتئذ .

ثم هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريماً له وتعظيماً عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة .

فلما حانت الصلاة أمَّ صلى الله عليه وسلم الأنبياء ، فتقدمهم إماماً عن أمر جبريل .

ثم خرج منه فركب البراق ، وعاد إلى مكة !!

فأصبح بها وهو فى غاية الثبات والسكينة والوقار ، وقد عاين فى تلك الليلة من الآيات والأمور التى لو رآها ـ أو بعضها ـ غيره لأصبح مندهشاً ، أو طائش العقل .

ولكنه صلى الله عليه وسلم أصبح واجماً ـ أى ساكناً ـ يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه .

فتلطف بإخبارهم أولا بأنه جاء بيت المقدس فى تلك الليلة .

وذلك أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد الحرام ، وهو جالس واجم .

فقال له : هل من خبر ؟ !

فقال : نعم

فقال : وما هو ؟ !

فقال : إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس .

قال : إلى بيت المقدس ؟ !!

قال : نعم .

قال : أرأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتنى به ؟ !

قال : نعم .

فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم ليخبرهم ذلك ويبلغهم .

فقال أبو جهل : هيا معشر قريش . . . وقد اجتمعوا من أنديتهم .

فقال : أخبر قومك بما أخبرتنى به .

فقص عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلى فيه ! .

فمن بين مصفق ، وبين مصفر ، تكذيباً له ، واستبعاداً لخبره !!

الصديق

وطار الخبر بمكة ، وجاء الناس إلى أبى بكر رضى الله عنه .

فأخبروه أن محمداً يقول كذا وكذا .

فقال : إنكم تكذبون عليه .

فقالوا : والله إنه ليقوله .

فقال : إن كان قاله فلقد صدق .

ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحوله مشركى قريش ، فسأله عن ذلك فأخبره ، فاستعطه عن صفات بيت المقدس ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به .

وكان مما قال أبو بكر ، وقد أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يانبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال : نعم .

قال : يانبي الله ، فصفه لى فإنى قد جئته .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر صَدَقْت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئاً قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، حتى انتهى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر « أنت ياأبا بكر الصِّدِّيق » .

فيومئذ سماه الصديق .

تطور الصلاة

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم من صبيحة ليلة الإسراء ، جاءه جبرائيل عند الزوال ، فبين له كيفية الصلاة وأوقاتها .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فاجتمعوا وصلى به جبرائيل فى ذلك اليوم إلى الغد ، والمسلمون يأتمون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقتدى بجبرائيل .

وروى أن الصلاة كانت قبل الإسراء تكون ركعتين ، ثم لما فرضت الخمس ، فرضت حضراً على ماهى عليه ، ورخص فى السفر أن يصلى ركعتين كما كان الأمر عليه قديماً .

وفاة خديجة وأبى طالب ! !

ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صِدْقٍ على الإسلام ، يشكو إليها .

وبموت عمه أبى طالب ، وكان له عضُداً ومنعة وناصراً على قومه .
وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

قصة زواج عائشة

توفيت خديجة رضى الله عنها قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ... فلبث سنتين ، وتزوج عائشة .

وكان دخوله بها فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة

وقصة ذلك : لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت : يارسول الله ألا تزوج ؟

قال : من ؟ .

قالت : إن شئت بكراً . وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر ؟ .

قالت : أحب خلق الله إليك ، عائشة ابنة أبى بكر .

قال : ومن الثيب ؟

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك .

قال : فاذهبى ... فاذكريهما علىّ .

فدخلت بيت أبى بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ .

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة .

قالت : أنظرى أبا بكر حتى يأتى .

فجاء أبو بكر ، فقالت يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ .

قال : وما ذاك ؟ .

قالت : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ؟ إنما هى ابنة أخيه ؟ .

فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له قال : «ارجعى إليه فقولى له أنا أخوك ، وأنت أخى فى الإسلام ، وابنتك تصلح لى» .

فرجعت فذكرت ذلك له ، قال : انتظرى . . . وخرج .

قالت أم رومان : أن مطعم بن عدى قد ذكرها على ابنه ، ووالله ماوعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه .

فدخل أبو بكر على مطعم بن عدى ، وعنده امرأته أم الصبى ، فقالت ياابن أبى قحافة ، لعلك مصبى صاحبنا تدخله فى دينك الذى أنت عليه إن تزوج إليك ؟ .

فقال أبو بكر لمطعم بن عدى : إنها تقول ذلك ؟ ! .

فخرج من عنده ، وقد أذهب الله ما كان فى نفسه من عدته التى وعده .

فرجع فقال لخولة : ادعى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فدعته . . . فزوجها إياه . . .

قصة زواج سودة

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت : ماأدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ .

قالت : وما ذاك ؟ .

قالت : أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك إليه .

قالت : وددت ، ادخلى إلى أبى بكر فاذكرى ذلك له .

فدخلت عليه ، فحيته بتحية الجاهلية ، فقال : من هذه ؟ .

قالت : خولة بنت حكيم ·

قال : فما شأنك ؟ ·

قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة ·

قال : كفؤ كريم ·

قالت : ماذا تقول صاحبتك ؟ ·

قال : تحب ذلك · · · ادعيها إلى ·

فدعتها ، قال : أى بنية : إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك ، وهو كفؤ كريم ؛ أتحبين أن أزوجك به ؟ ·

قالت : نعم ·

قال : ادعيه لى ·

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه ·

زفاف عائشة

قالت عائشة تروى قصة زفافها : فقدمنا المدينة فنزلنا فى بنى الحارث بن الخزرج ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل بيتنا ، واجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء فجاءتنى أمى وأنا لفى أرجوحة بين عذقين ، يرجح بى ، فأنزلتنى من الأرجوحة ، ولى جميمة ففرقتها ، ومسحت وجهى بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى وقفت بى عند الباب ، وإنى لأنهج حتى سكن من نفسى ، ثم دخلت بى فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على سرير فى بيتنا ، وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستنى فى حجره ثم قالت : هؤلاء أهلك ، فبارك الله لك فيهم ، وبارك لهم فيك ، فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، ودخل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتنا ·

لماذا تزوج سودة ؟

وها هو ابن عباس يروى لنا أسباب زواجه صلى الله عليه وسلم من سودة

فيقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب امرأة من قومه يقال لها سودة وكانت مصيبة ، كان لها خمس صبية — أو ست — من بعلها مات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مايمنعك منى ؟ » قالت : والله يانبي الله مايمنعنى منك أن لاتكون أحب البرية إلىّ ، ولكن أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية . قال فهل منعك منى غير ذلك ؟ قالت : لا والله . قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحمك الله ، إن خير نساء ركبن عجائز الإبل ، صالح نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وارعاه على بعل بذات يده . وكان زوجها قبله عليه السلام السكران بن عمرو وكان ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة ، ثم رجع إلى مكة فمات بها قبل الهجرة .

وهذا يقتضى أن عقده على عائشة كان متقدماً على تزويجه بسودة بنت زمعة ، ولكن دخوله على سودة كان بمكة ، وأما دخوله على عائشة فتأخر إلى المدينة فى السنة الثانية .

لا تبكى يابنية !..

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ! .

فلما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك التراب ، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : « لا تبكى يابُنَيَّةُ فإنَّ الله مانعٌ أباكِ » .

حتى الطائف ... تؤذى رسول الله !!

ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من

الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم .. وهم إخوة ثلاث .

فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال له أحدهم : هو يمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : أما وجدَ الله أحداً يرسله غيرك ؟!

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله مايبنغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم « إذ فعلتم مافعلتم ، فاكتموا عنى » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيحرشهم ذلك عليه .

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس .

وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ، ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه ، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء .

وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابن ربيعة وهما فيه .

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل عنبة فجلس فيه .

وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم إليك أشكو ضعف

قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجَهَّمُنى ؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علَىَّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقَتْ له الظلمات ، وصلح عليه أمرالدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحلَّ عَلَىَّ سَخَطُكَ ، لك العُتبى[1] حتى ترضى ، ولاحول ولاقوة إلا بك » .

فلما رآه ابنا ربيعة ، ومالقى ، تحركت له رحمتهما ، فدَعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس .

فقالا له : خذ عنقوداً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : كل .

فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل .

فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس ؟ وما دينك ؟ » .

قال : نصرانى .. وأنا رجل من أهل نِينوَى .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ؟ » .

فقال عداس : ومايدريك مايونس بن متى ؟ .

---

(١) العتبى : الرضى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك أخي ، كان نبيًا وأنا نبي » .

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

الجن يستمعون !

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف .

حتى إذا كان بنخلة ، قام من جوف الليل يصلي ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له .

فلما فرغ من صلاته وَلَّوْا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا .

فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : (وإذ صَرَفْنَا إليكَ نفراً من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله : (ويُجِرْكُمْ منْ عذاب أليم) وقال تبارك وتعالى : (قل أوحىَ إليَّ أنه استَمَعَ نفرٌ منْ الجنِّ) إلى آخر القصة من خبرهم من هذه السورة .

يعرض نفسه على القبائل !

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعرض نفسه فى المواسم إذا كانت ، على قبائل العرب : يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه ، حتى يبين عن الله مابعثه به .

وكان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف ، إلا تصدى له فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ماعنده .

فما استجاب له من أحد ! !

بيعة العقبة الأولى

فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فلما كلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: ياقَوْم ، تعلموا والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود فلاتسبقنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

وكانوا ستَّة من الخزرج .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوه بالعقبة ، فبايعوه : « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل : إن شاء غفر ، وإن شاء عذَّب » .

وذلك قبل أن يُفترض عليهم الحرب .

فلما انصرف عنه صلى الله عليه وسلم القوم ، بعث معهم مُصْعَبَ بن عُمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين .

فكان يصلى بهم ، ذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يَؤُمَّه بعض

ومضى مصعب يدعو الناس إلى الإسلام بالمدينة ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

وكان فيمن أسلم أُسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ .

بيعة العقبة الثانية الكبرى

وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة .

فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق .

قال كعب بن مالك : حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من خيامنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نتسلل تسلل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا .

قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه .

فلما جلس كان أولَ متكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يامعشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمِنَ الآنَ فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما

نمنع منه أُزُرنا(١) ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ...

فاعترض أبو الهَيْثَم بن التيهان فقال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا (يعني اليهود) وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجعَ إلى قومك وتدَعَنا ؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدَّمُ الدَّمُ ، والهدمُ الهدمُ(٢) ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

قال كعب : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنقباء : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » (يعني المسلمين) .

قالوا : نعم .

---

(١) نساءنا .

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحلف : « دمي دمك وهدمي هدمك »

الهجرة

كيف كانت الهجرة ؟

فلما عتت قريش على الله عز وجل، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم، وعذبوا ، ونفوا ، من عبده ووحده وصدق نبيه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال .

فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب : (أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا رَبُّنا الله ...) .

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم في الحرب ، وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار .

وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا وداراً تأمنُونَ بها » . فخرجوا أرْسَالا[1] .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

واجتمع أشراف قريش ، وغيرهم ممن لا يُعَدّ من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا .

فقال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به الموت .

ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع .

---

(١) طائفة بعد طائفة .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ، ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتى جليداً نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يَعْمِدوا إليه ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً .

فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

فلما كانت ظلمة من الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب « نم على فراشى ، وتَسَجَّ بِبُرْدِى هذا الحضرمى الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

فلما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام فقال وهم على بابه : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره لكنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلت لكم ناراً تحرقون فيها ! .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « نعم أنا أقولُ ذلك ، أنتَ أحَدُهُم » ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته .

ثم عمدا إلى غارٍ بثَوْرٍ جَبَلٍ بأسفل مكة ، فدخلاه .

وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا .

فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار

لينظر أفيه سبُع أو حية ؟ يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ! .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثا ومعه أبو بكر — وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم .

حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما ، وبعير له .

فركبا ... وانطلقا ...

وأردف أبو بكر الصديق ، عامر بن فهيرة مولاه خلفه ، ليخدمهما فى الطريق .

وكانوا أربعة : رسول الله . . . وأبو بكر . . . وعامر . . . وعبدالله بن أرقط دليلهما .

فلما خرج بهما دليلهما سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى قدما المدينة لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل .

وكان بين خروجه من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يوما لأنه أقام بغار ثور ثلاثة أيام .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة .

وكان الطريق الذى سلكوه غير الطريق المألوفة وأبعد منها .

وصوله إلى المدينة

وروى عن رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما سمعنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة انتظرنا قدومه . كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتنا ننتظره ، فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على

الجبال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة .

قالوا : حتى إذا كان اليوم الذى قدُوم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه. جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود .

فصرخ اليهودى بأعلى صوته : هذا جدكم قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك .

وازدحم عليه الناس وما يعرفونه من أبى بكر .

حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك ! .

وأقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

بناء مسجد رسول الله

وبركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع لغلامين يتيمين من بنى النجار .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه .

فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه .

ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس .

بدء التنظيم

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين ، من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدةٌ من دون الناس ... وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ... » .

يؤاخي بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض .

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار . فقال : « تآخَوْا في الله أخوين أخوين » ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : « هذا أخي » .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين ! .

وكان حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخوين .

وتلك هي الأخوة الصادقة ، التي تزول فيها الحواجز والطبقات .

كيف كان الأذان ؟

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة .

فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم .

ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليُضربَ به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد النداء ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يارسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف : مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده ، فقلت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال أفلا أدُلُّك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيَّ على الصلاة ، حي على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذّن بها فإنه أندى صوتا منك »

فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه وهو يقول : يانبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلله الحمد ... » .

بدء عداوة اليهود وظهور النفاق

ونَصَبَت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً ، لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم .

ومال إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان بقى على جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث .

إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره ، واجتماع قومهم عليه .

فظهروا بالإسلام ، واتخذوه وقاية من القتل ، ونافقوا فى السر ، وكان هواهم مع يهود .

وكانت علماء اليهود هم الذين يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعنَّتُونه ، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل .

فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه إلا قليلا من المسائل فى الحلال والحرام ، كان المسلمون يسألون عنها .

إسلام عبد الله بن سلام

قال عبد الله بن سلام : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نترقب له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فنزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجلٌ حتى أخبر بقدومه . وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة ابنة الحرث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبَّرتُ ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيَّبك الله !! . والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت ! .

قال : فقلت لها : أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

قال : فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ !

فقلت لها : نعم .

فقالت : فذاك إذا .

ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت . ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

قال : وكتمت إسلامى من يهود ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يارسول الله ، إن يهود قوم بُهت ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

قال : فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه .

ثم قال لهم : أى رجلٍ الحُصينُ بن سلامٍ فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا ، وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يامعشر يهود اتقوا الله ، واقبلوا ماجاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به ، وأصدقه وأعرفه .

فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى .

فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بُهت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟

قال: وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحرث فحسن إسلامها .

* * *

وكلما ظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلما زاد غيظ اليهود ، واشتد نفاق المنافقين ، حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أصحابه بإخراج المنافقين من مسجده ، فصاروا يسحبونهم ويلقون بهم خارج المسجد .

وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا ويقوم بالغزوات ، فى مجال ضيق ، للاستطلاع والاستكشاف .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يهدف من ذلك إلى تمرين أصحابه وإعدادهم للقتال ، وإلى إرهاب أعداء الله وإشعارهم بمنعة أصحابه .

متى حولت القبلة ؟

صرفت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

وحاصل الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه أن يجمع بينهما فصلى إلى بيت المقدس أول مقدمه إلى المدينة ، واستدبر الكعبة سبعة عشر شهراً .

وكان عليه السلام يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة قبلة إبراهيم ، وكان يكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عز وجل ، فكان مما يرفع يديه وطرفه إلى السماء سائلا ذلك .

فأنزل الله عز وجل : (قدْ نَرَى تقلُّبَ وَجْهِكَ فى السماء ، فلنوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شطْرَ المسجدِ الحرامِ) الآية .

فلما نزل الأمر بتحويل القبلة ، خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، وأعلمهم بذلك .

فرض رمضان وزكاة الفطر

وفى السنة الثانية من الهجرة كذلك فرض صيام رمضان .

وفى هذه السنة أمر الناس بزكاة الفطر .

وفيها صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العيد ، وخرج الناس إلى المصلى ، فكان أول صلاة عيد صلاها .

غَزْوَة بَدْرٍ العُظمَىٰ

كيف كانت الغزوة ؟

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام ، فى عير لقريش ، وتجارة من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون .

وندب المسلمين إليهم وقال : « هذه عيرُ قريشٍ فيها أموالُهم ، فاخرُجُوا إليها لعل الله يُنَفِّلكُمُوهَا » .

فانتدب الناسُ ، فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يَلْقى حرْباً .

وكان أبو سفيان ـ حين دنا من الحجاز ـ يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفا على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك .

فَحَذِر عند ذلك .

فاستأجر ضَمضَم بن عمرو ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا فى أصحابه .

فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة . . . وصرخ ببطن الوادى واقفاً على بعيره قد قطع أنف بعيره ، وحوّل رحله ، وشقّ قميصه وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة[1] أموالكم مع أبى سفيان : قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لاأرى أن تدركوها ، الغوْث الغوث .

فتجهز الناس سراعاً ، فكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا .

وَأوْعَبَت قريش ، فلم يتخلف من أشرافها أحد : إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف وبعث مكانه العاصى بن هشام .

---

(١) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليالٍ مضت من شهر رمضان فى أصحابه .

خرج يوم الاثنين لثمان ليال خَلَوْنَ من شهر رمضان .

واستعمل عَمْرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس .

ودفع اللواء إلى مصْعَب بن عمير ، وكان أبيض .

وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لها العُقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين بعيراً ، فتناوبوها . . .

وجعل على الساقة ، قيس بن أبى صَعْصَعَة .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ .

فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقه من المدينة إلى مكة ، فلما كان على واد يقال له ذَفِرَان نزل .

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم .

يستشير أصحابه

فاستشار الناس ، وأخبرهم عن قريش .

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن .

ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن .

ثم قام المقدادُ بن عَمْرو فقال : يا رسول الله ، امضِ لما أراك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ[1] الغِمادِ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشيروا عَلَىَّ أيها الناس » ... وإنما يريد الأنصار .

فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ .

قال : أجل .

قال : فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله كما أردت ، فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقرُّ به عينُك ، فسر بنا على بركة الله .

فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشّطه ذلك .

سيروا وأبشروا .. :

ثم قال : «سيروا ، وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظرُ إلى مصارعِ القوم » .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذَفِرَان ، ثم نزل قريباً من بدر ، فركب هو ورجل من أصحابه هو أبو بكر الصديق ، يسأل عن أخبار قريش .

---

(١) موضع بناحية اليمن .

فلما أمسى بعث علىّ بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، فى نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا غلامين لقريش فأتوا بهما .

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَمِ القَوْمُ ؟ » .

قالا : كثير .

قال : « ماعدَّتُهم ؟ » .

قالا : لاندرى .

قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » .

قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القومُ فيما بين التسعمائة والألف » .

وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حَذِرا ، حتى ورد الماء .

فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق ، وأخذ بها جهة الساحل ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ، أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نَرِدَ بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجُزُر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا .

ومضت قريشٌ حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى .

وبعث الله السماء ، وكان الوادى ليناً لم يبلغ أن يكون رملا .

فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ماء لبَّد لهم الأرض .

وجعل ترابها لايثور ، وسهل لهم السير فيه ، ولم يمنعهم من المسير .

وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه .

ينزل على رأى الحباب!

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء ، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

قال الحبَّابُ بن المنذر : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ .

قال : « بلْ هو الرأىُ والحربُ والمكيدةُ » .

قال : يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله . ثم نفسد ماوراءه من الآبار (بأن يقذفوا فيه أحجاراً وتراباً فيفسدوها على أعدائهم). ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء .

ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشَرْتَ بالرأىِ » .

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار ، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالآبار فأفسدت ، وبنى حوضاً على البئر الذى نزل عليه ، فمُلىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

بناء العريش

وقال سعد بن معاذ رضى الله عنه : يا نبى الله ، ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ماأحببنا . وإن كانت الأخرى جلَسْتَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد لك حُبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير .

ثم بُنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش ... فكان فيه .

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . . . » .

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلثمائة رجل جعلوا يتكلمون فى الرجوع .

فقام عُتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، وابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ...

فقال أبو جهل : كلاَّ ! . والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ! .

بدء المعركة

وخرج الأسود بن الأسود قائلا : أعاهد الله لأشربَنَّ من حوضهم ، أو لأهدِمَنَّه ، أو لأموتَنَّ دونه .

فلما خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ،

فوقع على ظهره تشْخُبُ رجله دماً ، نحو أصحابه .

ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يَبرَّ يمينه .

واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض .

المبارزة

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ابن عتبة .

حتى إذا خرج من الصف دعا إلى المبارزة .

فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة .

فقالوا : من أنتم ؟ .

فقالوا : رهطٌ من الأنصار .

فقالوا : مالنا بكم من حاجة .

ثم نادى مناديهم : يامحمد ... أخرج إلينا أكْفَاءنا من قومنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُمْ ياعبيدةُ بن الحرثِ ، قم ياحمزة ، قُمْ ياعليّ » .

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ .

قال عبيدة : عبيدة .

وقال حمزة : حمزة .

وقال عليّ : عليّ .

قالوا : نعم ... أكفاء كرام .

فبارزعبيدة — وكان أسن القوم — عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز عليّ الوليد بن عتبة .

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله .

وأما عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله .

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه .

وكر حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش ، معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سَبْعَ عشرة من شهر رمضان .

ثم عدّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ماوعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلكْ هذه العصابة اليومَ لاتُعْبَدُ » .

وأبو بكر يقول : « يانبي الله ، بعضَ مناشدتك ربك ، فإن الله مُنجزٌ لك ماوعدك .

أول قتيل من المسلمين

وقد رُمى مِهْجَعٌ - مولى عمر بن الخطاب - بسهم فقُتل .

فكان أول قتيل من المسلمين .

ثم رمى حارثة بن سراقه - وهو يشرب من الحوض - بسهم فقُتل .

النبي يحرض أصحابه على القتال

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم ، وقال : « والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلُهُم اليوم رجل فيقتلُ صابراً محتسباً ، مقبلا غير مُدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً ، ثم قال : « شاهَتِ الوجوه » ثم رماهم بها .

وأمر أصحابه فقال : « شدوا » .

فكانت الهزيمة .

فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « أحدٌ أحدٌ » .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يطرحوا فى البئر ، فطرحوا فيه .

ووقف عليهم فقال : « يأهلَ القَلِيب ، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقًّا ؟ فإنى قد وجدتُ ماوعدنى ربى حقًّا ؟ » .

فقال له أصحابه : يارسول الله ، أتكلم قوماً موتى ؟ !

فقال : « لقد علموا أن ماوعدهم ربهم حق » .

ذيول المعركة

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما فى المعسكر مما جمع الناس ، فجمع ، فاختلف المسلمون فيه .

فقال من جمعه : هو لنا .

وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ماأصبتموه .

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ماأنتم بأحقَّ به منا .

فنزعه الله من أيديهم جميعاً ، وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رَوَاحة بشيرا إلى أهل العالية ، بما فتح الله عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى المسلمين .

وبعث زَيْدَ بن حارثة إلى أهل السَّافلة .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين .

واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه الغنائم التى أصيبت من المشركين .

ثم قسمه صلى الله عليه وسلم وهو فى الطريق على المسلمين على السواء .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقال : « استَوْصُوا بالأسَارَى خيْراً » .

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيْسُمَانُ بن عبد الله ، فقالوا : ماوراءك ؟ .

قال : قُتل عُتبة ، وشيبة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأُمَيَّة بن خلف . . . وجعل يعدد أشراف قريش .

ومالبث أبو لهب أن مات بعد سبع ليال من إذاعة خبر هزيمة قريش المنكرة ! .

قالوا : وناحت قريش على قتلاهم ، ثم قالوا : لاتفعلوا فيبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم عاجلا ، حتى لايشتد عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى .

وكان فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل ، إلى ألف درهم ،إلا من لاشىء له ، فمنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه .

نزول سورة الأنفال

فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن الأنفال بأمرها .

وكان عدد من شهد بدراً من المسلمين من المهاجرين والأنصار ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلا .. من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن الأوس واحد وستون رجلا ، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا .

واستشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر .

أما قتلى المشركين فكانوا سبعين رجلا ، والأسرى كذلك .

وكان فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر فى عقب شهر رمضان .

* * *

تلك هى معركة بدر الكبرى .

تلك المعركة التى سماها الله « يوم الفرقان . يوم التقى الجمعان » .

ولقد كان كذلك حقاً وصدقاً .

فهى يوم الفرقان لأنها فرقت بين الحق المستضعف والباطل المتغطرس .

فأعزت الحق ، وأذلت الباطل .

ودوى صوت بدر عالياً فى الآفاق ... دوى فى أنحاء جزيرة العرب ، وتسامع بها العرب أينما كانوا .

وكان يزيد من دويها ، تلك الأشعار التى جعل أبناء مكة يطلقونها فى الجزيرة وينوحون بها على قتلاهم ، وتلك الأشعار الأخرى التى جعل بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقونها كذلك ، ، اعتزازاً بفضل الله عليهم يوم بدر .

ولقد تجاوز ذلك الدوى بطاح مكة وأرجاء الجزيرة العربيه إلى الحبشة بلد النجاشى ، حيث يقيم عنده بعض من هاجر إليه فاراً بدينه ينتظر نصر الله .

قالوا : أرسل النجاشى ذات يوم إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فدخلوا عليه فقال النجاشى : إنى أبشركم بما سركم إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى ، فأخبرنى أن الله قد نصر نبيكم ، وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان .

أى فرحة تلك التى دخلت آنئذ إلى قلب جعفر بن أبى طالب وأصحابه حين أنبأهم النجاشى الخبر ؟!

وأى سعادة تموج فى قلوبهم موجاً ، حين علموا أن الله قد صدقهم وعده وأعز رسوله ومن معه من المؤمنين ؟ !

لقد دوت بدر فى الأرض دويًّا عالياً شامخاً ، لأنها نصر الله .

كما دوت فى السماء دويًّا عظيما ، لأنها إرادة الله .

وكيف لا وقد كان جملة من شهد بدراً من المسلمين ثلثمائة وأربعة عشر رجلا منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بينما كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ورغم تفاوت الأسلحة ، وأن المسلمين خرجوا لا يريدون قتالا ، بينما خرج المشركون يريدون قتالا ونخراً ، رغم هذا كله كبت الكافرون وانتصر المسلمون ؟!

وكان الأعجب من ذلك أن الذين استشهدوا من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلا بينما قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون !! .

بل وأعجب من هذا كله أن ما كان مع المسلمين من الخيل هو فرسان ليس إلا !! .

لقد كانت فتحاً ، وكانت نصراً ، وكانت فاصلا بين عهد الذلة وعهد العزة فى الإسلام .

فهل هدأ صلى الله عليه وسلم ، بعد رجوعه من بدر ، وركن إلى الراحة ؟

غزوة بنى سليم

كلا ... فإنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم .

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم الأعمى ...

فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر ، فأقام عليه ثلاث ليال .

ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق كيداً .

فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفادى فى إقامته تلك جل الأسارى من قريش .

غزوة السويق

وكان أبو سفيان - حين رجع إلى مكة - ورجعت فلول قريش من بدر نذر أن مايمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً !! .

فخرج فى مائتى راكب من قريش ، لتبر يمينه ، فسلك حتى كان قريباً من المدينة ، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل ، فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه .

فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم ، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك . فاستأذن عليه ، فأذن له وأطعمه وسقاه . وأخبره من خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم خرج فى عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالا من قريش ، فأتو ناحية منها يقال لها العريض . فحرقوا فى نخيلها ، ووجدوا رجلا من الأنصار ، وحليفاً له فى زرع لهما ، فقتلوهما ، وانصرفوا راجعين .

كأنه قد وفى بنذره ! .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم . ثم انصرف راجعاً ، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه .

ووجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواداً كثيرة ، قد ألقاها المشركون ، يتخففون منها ، وعامتها سويق ، فسميت غزوة السويق .

قال المسلمون : يارسول الله أنطمع أن تكون هذه لنا غزوة ؟ .

قال : « نعم » .

غزوة ذى أمر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذى الحجة ، أو قريباً منها ، ثم غزا نجداً ، يريد غطفان ، وهى غزوة ذى أمر .

فأقام بنجدٍ صفراً كله ، أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ولم يَلْق كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الأول كله ، إلا قليلا منه .

غزوة الفرع من بحران

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قريشاً ، حتى بلغ بُحْران معدِناً بالحجاز من ناحية الفُرُعَ ، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلْق كيداً .

حصار بنى قينقاع

كان من حديث بنى قينقاع أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق قينقاع ثم قال : « يامعشر يهود ، احذروا من الله مثل مانَزَل بقريشٍ من النقمة ، وأسلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أن نبى مُرسَلٌ ، تجدون ذلك فى كتابكم وَعَهْدِ اللهِ إليكم » .

قالوا : يامحمد ، إنك تُرَى أنَّا قومُك ، لا يغرَّنَّك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس .

وكان من قصة بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها ، فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت .

فعَمِدَ الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سَوْءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله .. وكان يهودياً .

فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .

وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة .

سرية زيد بن حارثة

وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم التي كانوا يسلكون إلى الشام
- حين كان من وقعة بدر ما كان - فسلكوا طريق العراق .

فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدُ بن حارثة ، فلقيهم فأصاب تلك العير وما فيها ، وأعجزه الرجال .

فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مصرع كعب بن الأشرف اليهودى

وكان من قصته .. أنه لما أصيب أصحاب بدر ، وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بالنصر . قال كعب : أحق هذا ؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟ ! فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة .

وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب من قريش .

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فتغزل فى نساء المسلمين وذكرهن فى أشعاره حتى آذاهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لِي بابن الأشرف ؟ » .

فخرج له جماعة من المسلمين وقتلوه ليلا .

وأصبحت المدينة وليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه .

غزوة أُحُدٌ

لماذا كانت المعركة ؟

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ، ورجع المنهزمون منهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره .

مشى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر .

فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قريش ، إن محمداً قد جعل لكم عنده ثأراً ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحاب العير بأحابيشها ، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشيٌ يقذف بحربة له قذف الحبشة ، قلما يخطىء بها فقال له : أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عمّ محمد . . . فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدها وجَدِّها وحديدها وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة .

وخرجوا معهم بالنساء التماس الأنفة والغضب ، وأن لا يفروا .

فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ، بهند ابنة عتبة .

وكانت هند كلما مرّت بوحشى أو مر بها قالت : وَيْهاً أبا دسمة ، اشف واشتَفِ .

فأقبلوا حتى نزلوا مقابل المدينة .

يستشير الشعب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مُقام ، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها » .

وكان رأى عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكره الخروج .

وينزل على رأى الشعب !

فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة .

فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يارسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ؟ فإن شئت فاقعد صلى الله عليك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماينبغى لنبى إذا لبِسَ لأمته[1] أن يضعها حتى يقاتل » .

الخروج للمعركة

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه .

حتى إذا كانوا بالشَّوْطِ ـ بين المدينة وأُحُد ـ انخزل عنه عبد الله بن أبى ابن سلول بثُلُث الناس .

وقال : أطاعهم وعصانى ، ماندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ !

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشِّعْب من أُحُد فى عَدْوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد .

وتعبّى رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال ، وهو فى سبعمائة رجل . وأمّرَ

---

(١) لأمته : درعه .

على الرماة عبد الله بن جبَيْر ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلا ، فقال : انضح[1] الخيلَ عنا بالنَّبْلِ ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبُتْ مكانك ، لأنؤْتَـينَّ من قِبَلِك » .

وتعبَّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فرس قد قادوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل .

اللقاء ...

فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يَضرِبْنَ بها خلف الرجال ، يُحرِّضْنهم ، فقالت هند فيما تقول :

وَيهاً بنى عبد الدار ، ويهاً حُماةَ الأدبارْ ، ضَرْباً بكُلِّ بَتّارْ .

وتقول :

إن تُقبِلوا نُعانِقْ ونفرشُ النَّمارِق[2]
أو تُدْبِرُوا نُفارِقْ فِراقَ غيرِ وامِق[3]

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد « أمِت أمِت » .

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب .

مصرع حمزة !

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أبطالا .

قال وحشي : والله إني لأنظر إلى حمزة يَهُدُّ الناس بسيفه ... وهززت حربتي ، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت في ثُنَّته ، حتى خرجت

---

(١) انضح : ادفعهم عنا .
(٢) النمارق جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .
(٣) الوامق : المحب .

من بين رجليه ، فأقبل نحوى ، فغُلِب فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات ، جئت ، فأخذت حربتى ثم تنحَّيْتُ إلى العسكر ، ولم يكن لى بشىء حاجة غيره .

فلما قُتل مُصْعَبُ بن عُمَيْر أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء علىّ ابن أبى طالب .

ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فقتلوهم بالسيوف ، حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

فلما رأى رماة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن قد انكشف القوم ، وانهزموا ، وأن المسلمين عكفوا على الغنائم ، تركوا أماكنهم ، وخلوا ظهور المسلمين للخيل ، فأتوا من خلفهم ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل .

فرجع المسلمون ، ورجع عليهم المشركون .

وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص .

خَلَصَ العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُمى بالحجارة ، حتى وقع لشقّه ، فأصيبت رَباعيته ، وشجَّ فى وجهه ، وجرحت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم ، وهو يقول : « كيف يُفلِح قوم خضَّبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » .

• فأنزل الله عز وجل فى ذلك « ليس لك من الأمر شىء أو يتوبَ عليهم أو يُعذِّبَهُمْ فإنهم ظالمون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين غشيه القوم ـ : « من رجل يشرى لنا نفسه ؟ » .

فقام خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجلا ثم رجلا .. يقتلون دونه .

ثم رجعت فئة من المسلمين ، فأزالوهم عنه .

المرأة تقاتل دون رسول الله !

قالت أمُّ عُمارة : خرجت أول النهار وأنا أنظر مايصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء .

فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه ، والغلبة والنصر للمسلمين .

فلما انهزم المسلمون ، انحَزْت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقمت أباشر القتال ، وأذُبُّ عنه بالسيف ، وأرْمِى عن القوس ، حتى خَلصتِ الجراح إلىَّ .

قالت : لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل رجل يقول: دُلُّونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

فاعترَضْت له أنا ، ومُصعبُ بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة (كان على عاتقها جرح أجوف لهَ غور) ، فلقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه دِرْعان .

أروع أمثلة الفدائية

وتَرَّسَ دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل فى ظهره ، وهو مُنْحَنٍ عليه حتى كَثُرَ فيه النبل .

ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يناوله النبل ، وهو يقول : « ارْمِ فداك أبى وأمى » .

ماذا تصنعون بالحياة بعده ؟!

وانتهى أنس بن النَّضْر إلى عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، فى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوْا بأيديهم فقال : مايجلسكم ؟ .

قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ .. فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل .

عن أنس بن مالك قال : لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه ! ! .

هذا رسول الله

وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وقول الناس قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك .

قال كعب : عرفتُ عينيه الشريفتين تزهران[1] من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن « أنصتْ » .

فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب : معه أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام ، رضوان الله عليهم ، ورهطٌ من المسلمين .

أين محمد ؟

فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب أدركه أُبَىّ بن خلف ، وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوتُ إن نجوْتَ .

فقال القوم : يارسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دَعُوهُ » .

فلما دنا منه ، تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحَرْبَةَ ، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة مال منها عن فرسه مراراً .

(١) تضيئان .

فمات عدو الله بسَرِف ، وهم قافلون به إلى مكة .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذ علت عاليةٌ من قريش الجبل .

كان على تلك الخيل خالد بن الوليد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » .

فقاتل عمر بن الخطاب ، ورهط معه من المهاجرين ، حتى أهبطوهم من الجبل .

وصلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر يوم أُحد قاعداً ، من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً .

هند تمثل بحمزة !

ووقعت هند بنت عُتبة ، والنسوة اللاتى معها ، يُمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقطعن الآذان والآنُف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خلاخيل وقلائد ! .

وأعطت هند خلاخيلها ، وقلائدها ، وقِرَطَتها وحشياً ـ قاتل حمزة ـ وشقت عن كبد حمزة فمضغتها ، فلم تستطع أن تبلعها ، فلفظتها ! ! .

ثم علت على صخرة مُشرفة فصرخت بأعلى صوتها ، فقالت :

شَفَيْتُ نفسى وقضيتُ نذرى   شَفَيْتُ وحشىُّ غليلَ صَدرى
فَشُكْرُ وحشِىّ علىَّ عُمرى   حتى تَرِمَّ[1] أعظُمى فى قبرى

انتهاء المعركة

وانصرف أبو سفيان ومن معه ونادى : إن موعدكم بدر للعام القابل .

---

(١) ترم : تتفتت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : « قلْ نعم ... هو بيننا وبينك موعد » .

لن أصاب بمثلك أبداً ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلتمس حمزة بن عبدالمطلب ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِرَ بطنه عن كبده ومثل به فقطع أنفه وأذناه .

ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ماوقفت مَوْقِفاً قَطُّ أغيظ إلىَّ من هذا » .

ادفنوهم حيث صرعوا

وكان قد احتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة ، فدفنوهم بها .

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « ادفنوهم حيث صُرِعُوا » .

وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد ! .

فما فعل رسول الله ؟

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُحد .

فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

قالوا : خيراً يا أمّ فلان ، هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه .

فأشير لها إليه ... حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة ! .

لم تفكر فى قتلاها ، وإنما فكرت فى صاحب الرسالة ! ! .

وهكذا كانوا ... ومن هنا خلدوا فى الأرض ، وخلدوا فى السماء .

إرهاب العدو

وكان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال ، من السنة الثالثة من الهجرة .

فلما كان الغد من يوم الأحد ، أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا حضر يومنا بالأمس .

وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرْهِباً للعدو ، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة .

هذا وجميع من استشهد من المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار فى غزوة أحد ، سبعون رجلا .

وجميع من قُتل يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلا .

غَزوة الخَندَق

يوم الرجيع

ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُدٍ رَهْط ، فقالوا : يارسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابْعَثْ معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرؤننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ستة من أصحابه .

فخرجوا مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع ـ ماء لهُذيل بناحية الحجاز ـ غدَروا بهم .

ثم قالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم .

ثم قتلوا بعضهم بالطريق ، واحتملوا الباقى إلى مكة أسْارى .

فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة .

فابتاع خُبَيْبا حُجَيْر بن أبى إهاب .

وأما زيد بن الدَّثِنَةِ فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف .

وبعث به صفوان بن أمية مع مولى يقال له : نَسْطَاس ، إلى التنعيم ، وأخرجوه من الحرم ليقتله .

واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشُدُكَ الله يا زيد ، أتُحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ .

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوْكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً ، كحب أصحاب محمد محمداً ! !

ثم قتله نسطاس ..

وأما خُبيبُ ، فحين خرجوا به إلى التّنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا .

قالوا : دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوّلتُ جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين .

ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلِّغْه الغداة مايصنع بنا .

ثم قال : اللهم أحصِهم عدداً ، واقتلهم بدداً(١) ، ولا تغادر منهم أحداً .

ثم قتلوه ...

وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... حب للرسول ... وحب لدينهم ... وشهادة تتبعها شهادة فى سبيل الله .

ولم تقف التضحية فى سبيل الدعوة عند هذا الحد ، ولكن هناك ماهو أكبر من قتل أولئك الستة ؟ !

مصرع أربعين آخرين !

قدم أبو بَرَاء عامِرُ بن مالك ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك رَجَوْت أن يستجيبوا لك ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أخشى عَلَيهِم أهْل نجدٍ » .

قال أبو بَرَاء : أنا لهم جارٌ ، فابعثهم فليَدْعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المُنـذِر بن عمرو فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين .

---

(١) بددا : فرقا .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة .

فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيْل .

فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى هجم على الرجل فقتله .

ثم استصرخ عليهم قبائل من عُصَيَّة ، وَرِعْلٍ ، وَذَكْوَان ، فخرجوا حتى أحاطوا القوم .

فلما رأوْهُمْ أخذوا سُيُوفهم ، ثم قاتلوهم ، حتى قتلوا عن آخرهم .

وذهب الأربعون ... شهداء فى سبيل الدعوة !

ومحاولة لاغتيال رسول الله !

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر .

فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية ذينك القتيلين ،

قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

ثم خلا بعضهم ببعض .

فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدارٍ من بيوتهم قاعد .

قالوا : فمن رجُلٌ يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحَّاش ، فقال : أنا لذلك .

فصعد ليلقى عليه صخرة ...

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ ، رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء ، بما أراد القوم ، فقام ، وخرج راجعاً إلى المدينة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتّهيّؤ لحرب اليهود والسير إليهم .
واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة أربع من الهجرة .

فحاصرهم فيها ست ليال .

ونزل تحريم الخمر ...

اجلاء يهود بنى النضير

فتحصَّنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها .

فنادَوْهُ : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ؟ . فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ !

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج - منهم عدو الله عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول - قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .

فتربصوا ذلك من نصرهم ... فلم يفعلوا .

وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجليهم ، ويكُفَّ ، عن دمائهم ، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح .

ففعل ...

فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل

فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام

خرجوا بالنساء والأبناء والأموال ، معهم الدُّفوف والمزامير والجوارى يعزِفْنَ خلفهم !

وخلَّوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، يضعها حيث يشاء .

فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين الأولين دون الأنصار .

ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .

غزوة ذات الرقاع

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادى .

ثم غزا نجْداً . . . وإنما قيل لها غزوة ذات الرقاع لأنهم رقعُوا فيها راياتهم .

حتى نزلَ نخْلا ـ موضع بنجد من أرض غطفان ـ فلقى بها جمْعاً عظيما من غطفان ، فتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضا ، حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ، ثم انصرف بالناس .

ألا أقتل لكم محمدا ؟!

ثم إن رجلا من بنى محارب يقال له : غَوْرَث ... قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمداً ؟ .

قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ .

قال : أفتك به .

فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس ، وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجره .

فقال : يا محمد . . انظُر إلى سيفك هذا ؟

قال : نعم . . وكان مُحَلًّى بفضة .

فأخذه فاستلَّه ، ثم جعل يهزُّه ، ويهمُّ فيكبته الله .

ثم قال : يامحمد ، أما تخافنى ؟

قال : « لا ، وما أخافُ مِنْك ؟ » .

قال : أما تخافنى ، وفى يدى السيف ؟ .

قال : « لا ، يمنَعُنى الله مِنْك »

ثم عمد إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فردَّهُ عليه ! .

غزوة بدر الآخرة

ثم خرج فى شعبان إلى بدر ، سنة أربع من الهجرة ، لميعاد أبى سفيان ، حتى نزله .

فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان .

وخرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى بلغ عُسفان ، ثم بدا له فى الرجوع ، فرجع الناس .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده .

ولكن أبا سفيان آثر العودة إلى مكة ! .

غزوة دومة الجندل

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيدا .

غزوة الخندق

ثم كانت غزوة الخندق ، فى شوال ، سنة خمس من الهجرة .

وكان من حديثها أن نفرا من اليهود ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ .

قالوا : بلى دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ! ! .

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونَشِطوا لما دَعَوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاجتمعوا لذلك ، واتَّعَدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ،.وخرجت غطفان وقائدها عيَيْنة بن حِصْن .

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماأجمعوا له من الأمر ، ضرب الخندق على المدينة .

فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيباً للمسلمين فى الأجر .

وعمل معه المسلمون فيه ؛ فدأب فيه ودأبوا .

وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يستترون بالضعيف عن العمل ، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة .

وأقبلت غَطفَان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، فى ثلاثة آلاف من المسلمين .

فضرب هنالك معسكره ، والخندق بينه وبين القوم .

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وأمر بالذَّرارِي والنساء فجُعلوا فى الحصون .

غدر اليهود

وخرج عدو الله حُيَيّ بن أخْطَب حتى أتى كعب بن أسد ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده .

قال حيي : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وببَحْر طام . . . جئتك بقريش ، على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة . . وبغطفان على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم إلى جانب أحُد ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فلم يزل حيي بكعب ، حتى نقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، وإلى المسلمين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه ، ينظرون حقيقة الخبر .

فخرجوا حتى أتَوْهم ، فوجدوهم على أخبث مابلغهم عنهم .

نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : مَنْ رسول الله ؟! . لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقدا .

ثم أقبل أولئك النفر وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبرُ . أبشروا يامعشر المسلمين » .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم .

حتى ظن المؤمنون كُلَّ ظن .

ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال أحدهم : كان محمد يَعِدُنا أن

تأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحَدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر .

لم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنَّبْل والحصار .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وعدوهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ ، تيمَّمُوا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، وخرج على بن أبى طالب فى نفر معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثُّغْرة التى أقحموا منها خيلهم .

وقتل على بن أبى طالب عمرو ، وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخَندق هاربةً .

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق « حم لا يُنصَرُون » .

إن الحرب خدعة

ثم إن نُعَيْم بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ ، فَخَذِّلْ عَنَّا إن استطعت ، فإنَّ الحرْبَ خدْعةٌ » .

فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة ــ وكان لهم نديماً فى الجاهلية ــ فقال : يابنى قريظة .. إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم : البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون أن تحَوَّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، فإن رأوا فرصة أصابوها ، وإن كان

غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة على أن تقاتلوا معهم محمداً ...

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش وغطفان ، رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج إلى غطفان ، فقال لهم مثل ماقال لقريش ، وحذرهم ماحذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس من الهجرة ، أرسل أبو سفيان، ورءوس غطفان ، إلى بنى قريظة أن أغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لايعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم ، فإنا نخشى أن تتركونا والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالوا ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدّثكم نُعيم لحق .

فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نُعيم لحق ، مايريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها .

وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخَلّوْا بينكم وبين الرجل فى بلدكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تُعطُونا رُهُناً .

فأبَوْا عليهم . . . وخذَّل الله بينهم .

وبعث الله عليهم ... الريح فى ليال شاتية ، باردة ، شديدة البرد .

فجعلت تكفأ قُدُورهم ، وتطارح أبنيتهم .

فلما رأى أبو سفيان ذلك قال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الخيل والإبل ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء ؛ فارتحلوا فإنى مُرتحل .

ثم قام إلى جمله ، ثم ضربه فوثب به .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش من ارتحالها ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم !

غزوة بنى قريظة

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق ، راجعاً إلى المدينة ، والمسلمون ، ووضعوا السلاح

فلما كانت الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذن فى الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلين العصر إلا ببنى قريظة »

يا إخوان القردة !

وقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه برايته إلى بنى قريظة

وابتدرها الناس .

فسار على بن أبى طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، قال : يارسول الله لا عليك أن لا تدنوَ من هؤلاء الأخابث .

قال : « لم ؟ أظنُّكَ سمعت منهم لى أذى ؟ » .

قال : نعم يا رسول الله .

قال : « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً » .

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال : « يا إخوانَ القردة ، هل أخزاكُمُ الله وأنزل بكمُ نقمته ؟ » .

قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولا .

وتلاحق به الناس ، فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة .

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة .

حتى جهَدَهُم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

فلما أصبحوا ، نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل بنى قريظة ـ قد حاصر بنى قينُقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبىّ ، فوهبهم له .

فلما كلمته الأوس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم ؟ » .

قالوا : بلى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فذاك إلى سعد بن مُعاذ » .

فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهدُ الله ، وميثاقهُ إنّ الحكم فيهم لما حكمتُ ؟ .

قالوا : نعم .

قال : وعلى من هاهنا ؟ .

فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالا له .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَعَمْ » .

وقال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تُقْتَل الرجالُ ، وتقسم الأموال ، وتُسْبَى الذرارى والنساء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله » .

ثم استُنْزِلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فى دار بنت الحرث ، امرأة من بنى النجار .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة ، فخندق بها خنادق .

ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق .

يُخْرِجُ بهم إليه طائفة بعد طائفة ، وفيهم عدو الله حُيَيّ بن أخْطب ، وكعب ابن أسد رأس القوم .

وكانوا بين الثمانمائة والتسعمائة .

وقد قالوا لكعب بن أسد ، وهم يُذهبُ بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ، ماتراه يصْنع بنا ؟ .

قال : أفى كل موطن لاتعقلون ؟ ! . ألا ترون الداعى لاينزع ، وأنه من ذُهب به منكم لايرجع ؟! هو والله القتل .

فلم يَزَلْ ذلك الدَّأْبَ ، حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأتى بيحيي بن أخطب ، عدو الله ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله مالمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذَل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتابٌ وقدر ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل .

ثم جلس ، فضربت عنقه .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ، إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى توفي عنها وهي في ملكه .

وأنزل الله تعالى في أمر الخندق ، وأمر بني قريظة من القرآن القصة في سورة الأحزاب .

وفاة سعد بن معاذ

فلما انقضى شأن بني قريظة ، انفجر بسعد بن معاذ جرحه ، فمات منه شهيداً .

شهداء يوم الخندق

ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة منهم سعد بن معاذ .

وقتل من المشركين ثلاثة .

مصرع سلام بن أبي الحقيق

ولما انقضى شأن الخندق ، وأمر بني قريظة ، وكان سلام بن أبي الحقيق فيمن حزب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاستأذنت الخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل سلاَّم ، وهو بخيبر ، فأذن لهم .

فخرج إليه من الخزرج خمسة ، وأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك ، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة .

فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا داره ليلا . وضربوه بأسيافهم حتى قتلوه .

ثم عادوا ، فقدموا على رســول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأخبروه بقتل عدو الله .

اسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد !

عن عمرو بن العاص قال : لما انصرفنا يوم الأحزاب عن الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ، ويسمعون مني ، فقلت لهم تعلّموا والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علُوا منكراً ، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ .

قالوا : وماذا رأيت ؟ !

قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن منْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير .

قالوا : إن هذا الرأى .

قال : فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرُو بن أمية — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه — فدخل عليه ، ثم خرج من عنده .

فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية ، لو قد دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد قمت مقامها حين قتلت رسول محمد .

قال : فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع . ثم قلت له : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسـول رجل عـدو لنا ، فأعطنيه لأقتله . فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب وقال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ؟!.

قلت : أيها الملك ، أكذاكَ هو ؟!

قال : ويحك ياعمرو !! أطعنى واتبعه ؛ فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ .

قال : نعم .

فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابى وقد تحوّل رأيي عما كان عليه ، وكتمت أصحابى إسلامى .

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسلم .

فلقيت خالد بن الوليد ـ وذلك قبيل الفتح ـ وهو مقبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ .

قال : والله لقد تبين الأمر ، وإن الرجل لنبى ، أذهبُ والله فأسلم ، فحتى متى ؟! .

قال : قلت : والله ماجئت إلا لأسلم .

فقدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع .

ثم دنوت فقلت : يارسول الله ، إنى أبايعك على أن يُغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ماتأخر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعمرو ، بايع ، فإن الإسلام يَجُبُّ[(١)] ما كان قبلهُ ، وإنَّ الهجرة تجب ما كان قبلها » .

وقالوا : إن عثمان بن طلحة كان معهما ، أسلم حين أسلما .

---

(١) يجب : يقطع .

زواج أم حبيبة بنت أبي سفيان

قالت أم حبيبة : ماشعرت وأنا بأرض الحبشة إلا برسول النجاشي ، جارية يقال لها أبرهة ، فاستأذنت عليّ فأذنت لها ، فقالت : إن الملك يقول لك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أن أزوجكه .

قلت ، بشرك الله بالخير .

وقالت : يقول لك الملك : وكلى من يزوجك .

قالت : فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته ، وأعطيت أبرهة سوارين من فضة ، وخواتيم من فضة في كل أصابع رجلي سروراً بما بشرتني به .

فلما أن كان من العشي ، أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ، ومن كان هناك من المسلمين أن يحضروا .

وخطب النجاشي وقال : الحمد لله ، الملك القدوس المؤمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم أما بعد ... فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدي القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : ... أما بعد ، فقد أجبت إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد ، فقبضها .

ثم أرادوا أن يقوموا فقال : اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام ، فأكلوا ، ثم تفرقوا .

زواج زينب بنت جحش

تزوجها عليه السلام سنة خمس من الهجرة ... فى ذى القعدة ... بعد بنى قريظة .

وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة : فمكثت عند زيد قريباً من سنة ، ثم وقع بينهما خلاف ، فجاء زوجها يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول له : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك .

ثم طلقها زيد ... فلما انقضت عدتها بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبها إلى نفسه ، ثم تزوجها .

نزول الحجاب صبيحة عرسها

وكان نزول الحجاب فى هذا العرس صيانة لها ولأخواتها من أمهات المؤمنين .

عن أنس بن مالك قال : لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا وجلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر ، وجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقوا ، فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) الآية .

(البخارى)

وتلك الآية هى قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً . إن تبدوا شيئاً أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شىء عليماً) .

صُلحُ الحُدَيْبِيَة

نحن الآن فى سنة ست من الهجرة ، وهى السنة التى كان فى أوائلها ...

غزوة بنى لحيان

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ... وخرج على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة إلى بنى لحيان .

وأظهر أنه يريد الشام ، ليصيب من القوم غِرَّةً .

فخرج من المدينة ، واستعمل عليها ابن أم مكتوم ... فوجدهم قد حذروا ، وتمنَّعوا فى رؤوس الجبال .

فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخطأه من غرتهم ماأراد قال : « لو أنَّا هبطنا عسْفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة ؟ » .

فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ، ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كُرَاعَ الغَميم ... ثم كرا .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا .

غزوة ذى قرد

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم يقم بها إلا ليالى قلائل حتى أغار عيينة بن حصن فى خيل من غطفان على إبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأة له ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة فى الإبل .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فصرخ بالمدينة الفزَعَ ... الفزَع .

فترامت الخيول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما اجتمعوا إليه ، أمَّر عليهم سعد بن زيد ، ثم قال : « اخرُجْ فى طلبِ القوم حتى ألحَقَك فى الناس » .

وكان أول فارس لحق بالقوم مُحْرِزُ بن نضْلَةَ وحمل عليه رجل منهم فقتله .

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

فقتلوا من لحقوا به من الأعداء ، واستنقذوا بعض الإبل .

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالجبل من ذى قَرَد ، وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوماً وليلة .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا حتى قدم المدينة .

وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة من إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر .

غزوة بنى المصطلق

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعض جمادى الآخرة ورجبا ، ثم غزا بنى المُصْطَلَق فى شعبان سنة ست من الهجرة .

واستعمل على المدينة أبا ذر الغِفَارىّ .

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون له ، فلما سمع بهم خرج إليهم ، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له « المرَيْسيعُ » .

فتزاحف الناس ، واقتتلوا ، فهزم الله بنى المصطلق ، وقتل من قتل منهم .

وغنم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

ليخرجن الأعز منها الأذل

فبينا رسول الله على ذلك الماء ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له جَهْجاهُ يقود فرسه .

فازدحم جهجاهٌ وسنانٌ بن وبرَ الجهنى ، حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء .

فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار .

وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبى بن سلول ، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ، فقال : أوَقَدْ فعلوها ؟. قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول « سَمِّن كلبكَ يأكلكَ » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَن الأعز منها الأذل .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر ابن الخطاب فقال : مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيفَ ياعمر إذا تحدث الناسُ أنّ محمداً يقتلُ أصحابَهُ ؟ ! لا ، ولكن أذِّن بالرَّحيل » .

وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها .

فارتحل الناس ...

وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ماسمع منه — فحلف بالله ماقلت ماقال ، ولا تكلمت به ، وكان فى قومه شريفاً عظيماً ..

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً .

وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبى .

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين .

وأتى عبد الله — ابن عبد الله بن أبى — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه فإن كنت لابد فاعلا فمُرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت

الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى ، وإنى أخشى أن يأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبىّ يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمناً بكافر ؛ فأدخل النار .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل نترفقُ بهِ ونُحسِنُ صحبتهُ ما بَقِيَ معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ويعنفونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب — حين بلغه ذلك من شأنهم — « كيف ترى يا عُمرُ ؟ . أما والله لو قتلتهُ يومَ قلت لى اقتُله لأُرعِدَتْ لهُ آنُفٌ لو أمَرْتُهَا اليوم بقتله لقتَلَتهُ » .

قال عمر : قد والله علمتُ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ بركةً من أمرى .

هذا وكان شعار المسلمين يوم بنى المصطلق « يامنصور أمِتْ أمِتْ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصاب منهم سبياً كثيراً .

فوزعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين .

زواجه جويرية بنت الحرث

وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته .

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء فرغب فى بعيرين منها فغيَّبهما فى شِعب من شعاب العقيق .

ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يامحمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأينَ البعيران اللذان غيّبتهما بالعقيق في شِعب كذا وكذا ؟ » .

فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، فو الله ماأطلع على ذلك إلا الله ! .

فأسلم الحارث . وأسلم معه ابنان له ، وناس من قومه .

وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ، فدفع الإبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودُفعت إليه ابنته جويرية ، فأسلمت وحسن إسلامها .

فخطبها النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبيها ؛ فزوّجه إياها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك ، حتى إذا كان قريباً من المدينة ، وكانت معه عائشة في سفره ذلك ، قال فيها أهل الإفك ماقالوا ! .

حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيّتهُنّ خرج سهمها خرج بها معه .

فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهن معه .

فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَقَ(١) ، لم يُهَيِّجنَّ(٢) اللحمُ فيثقُلن ، وكنت إذا رُحل لي بعيري جلست في هودجي ، ثم يأتي القوم الذين يرحّلون لي ويحملونني ، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشُدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك وجّه قافلا .

(١) العلق : طعامهن كان قليلا . (٢) التهيج : انتفاخ الجسم .

حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزِلا ، فبات به بعضَ الليل .

ثم أذن فى الناس بالرحيل .

فارتحل الناس .

وخرجت لبعض حاجتى ، وفى عنقى عِقْدٌ لى فيه جزْعُ ظَفَارِ [1] ، فلما فرغت انسَلَّ من عنقى ولا أدرى .

فلما رجعت إلى الرحل ، ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده .

وقد أخذ الناس فى الرحيل .

فرجعت إلى مكانىَ الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته .

وجاء القوم خلا فى الذين كانوا يرحلون لى البعير ، وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشُكُّوا أنى فيه .

ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به .

فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس .

فتلفَّفْتُ بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتُقِدْتُ لرُجع لى .

فوالله إنى لمضطجعةٌ إذ مر بى صَفوانُ بن المُعَطَّل السُّلَمِىُّ ، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجاته ، فلم يبت مع الناس .

فرأى سوادى [2] ، فأقبل حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يُضرب علينا الحجاب .

فلما رآنى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

وأنا متلففة فى ثيابى .

---

(١) الجزع : الخرز . وظفار : اسم المدينة . (٢) شخصى .

قال : ماخلفك يرحمك الله ؟

فما كلمته . . ثم قرَّب البعير فقال : اركبي ، واستأخر عني .

فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعاً يطلب الناس .

فوالله ماأدركنا الناس ، وما افتُقِدْتُ حتى أصبحت ونزل الناس .

فلما اطمأنوا طلع الرجلُ يقودني ، فقال أهل الإفك ماقالوا : فارتعج[(١)] العسكر ، ووالله ماأعلم بشيء من ذلك .

وقالت : ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولايبلغني من ذلك شيء .

وقد انتهى الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أبويَّ ، لايذكرون لي منه قليلا ولا كثيراً ، إلا أني قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بي .

كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي : فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك فأنكرت ذلك منه . كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: كيف تيكُمْ ؟ لايزيد على ذلك .

حتى وجدتُ في نفسي ، فقلت : يارسول الله ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي ـ لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني ؟

قال : « لاعَلَيْكِ » .

فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان ، حتى نقِهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة .

وكنا قَوْماً عَرَباً ، ولا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنف التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهها ، إنما كنا نذهب في فسح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن .

---

(١) فارتعج : تحرك واضطرب .

فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أمُّ مِسْطَح ... وكانت أمها خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرتْ فى مِرْطها[1] فقالت : تعس مسطح .

قلت : بئس لعمرُ الله ماقلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً ؟ ! .

قالت : أو مابلغك الخبر يابنت أبى بكر ؟ !

قلت : وما الخبر ؟ .

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك .

قلت : أو قد كان هذا ؟ !

قالت : نعم والله لقد كان !

فوالله ماقدرتُ على أن أقضى حاجتى ورجعت !

فوالله مازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدعُ كبدى .

وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ ! .

قالت : أى بنية خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟ . والله ماعلمت منهم إلا خيراً ! ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيراً ، ومايدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى » !

وكان كِبْرُ ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول ، فى رجال من الخزرج ، مع مع الذى قال مسطح ، وحَمْنة بنت جحش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصبنى

(١) مرطها : كسائها .

فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها ، فلم تقل إلا خيراً ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادنى لأختها ، فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة قال أُسَيدُ بن حضير يارسول الله ، إن يكونوا من الأوس نكفكهُم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرَبَ أعناقهم .

فقام سعد بن عُبادة — وكان قبل ذلك يُرى رجلا صالحاً — فقال : كذبت، لعمر الله لانضرب أعناقهم ، أما والله ماقلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا ؟ .

فقال أسَيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك مُنافق تجادل عن المنافقين .

وتَثَاوَر الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحَيَّيْن من الأوس والخزرج شر .

ونزل رسول صلى الله عليه وسلم فدخل على ، فدعا على بن أبى طالب رضوان الله عليه وأسامة بن زيد فاستشارهما .

فأما أسامة فأثنى علىّ خيراً وقاله ، ثم قال : يارسول الله ، أهلك ولا نَعْلم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأما علىّ فإنه قال : يارسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها لتصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرَيْرَةَ ليسألها .

فقام إليها على بن أبى طالب فضربها ضرباً شديداً ، ويقول : أصدُقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

ثم دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى ،

وعندى امرأة من الأنصار . . . وأنا أبكى وهى تبكى معى ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ياعائشة .. إنه قد كان ماقد بلغك من قول الناس ، فاتقى الله فإن كنتِ قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » .

فوالله ماهو إلا أن قال لى ذلك فقلص (١) دمعى حتى ما أحس منه شيئاً وانتظرت أبوىّ أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتكلما !

وايْمُ الله لأنا كنتِ أحقر فى نفسى ، وأصغر شأناً من أن يُنزلَ الله فىّ قرآناً يُقرأ به فى المساجد ويُصَلَّى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب به الله عنى ، لما يعلم من براءتى ، أو يخبر خبراً ، فأما قرآن ينزل فى فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك .

فلما لم أرَ أبوَىَّ يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

فقالا : والله ماندرى بماذا نجيبه ! .

ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام .

فلما أن استعجما على استعبرتُ فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله إنى لاعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقولنَّ مالم يكن ، ولئن أنا أنكرت مايقولون لاتصدقوننى .

ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره !

قلت : ولكنى سأقول كما قال يوسف « فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ماتصفون » .

فوالله مابرح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

---

(١) قلص الدمع : ارتفع .

فأما أنا حين رأيت من ذلك مارأيت فوالله مافزعتُ ولا باليت، قد عرفت أنى منه بريئة، وأنّ الله عز وجل غير ظالمى.

وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجنّ أنفسُهُما فرَقا من أن يأتى من الله تحقيقُ ماقال الناس.

أبشرى ياعائشة

ثم سُرِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس، وإنه ليتحدّرُ منه مثل الجمان فى يوم شاتٍ، فجعل يمسح العَرَقَ عن جبينه ويقول: «أبشرى ياعائشةُ، فقدْ أنزل الله بَرَاءتك».

قلت: بحمد الله.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلاعليهم ماأنزل الله عليه من القرآن فى ذلك.

ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسّانِ بن ثابت، وحَمْنَـة بنت جحش ـ وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ـ فضربوا حدهم.

غزوة الحديبية

نحن فى ذى القعدة سنة ست هجرية، وهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج معتمراً، يريد زيارة البيت لايريد حرباً.

واستنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت.

فأبطأ عليه كثير من الأعراب.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظما له.

وكانوا أربع عشرة مائة .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان بعسفان ، لقيه بشر ابن سفيان ، فقال : يارسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا ، قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبداً ...

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب؟ . فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ . فوالله لاأزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ...

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ .

فقال رجل من أسلم : أنا يارسول الله .

فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل بين شعاب ، فلما خرجوا منه ، وقد شق ذلك على المسلمين ، فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله : قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فقالوا ذلك ....

فقال : والله إنها لَلْحِطَّة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمض فى طريق يخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيش ذلك الطريق .

فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثنية المرار ، ثم قال للناس : انزلوا ....

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ماالذى جاء به ؟ .

فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظما لحرمته .

فرجعوا إلى قريش فقالوا : يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت .

فاتهموهم وقالوا : وإن جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لايدخلها علينا عنوة ولاتحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفى ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه ثم قال : يامحمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ ! . إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لاتدخلها عليهم عنوة أبداً .

فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى مايصنع به أصحابه .

فرجع إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله مارأيت ملكا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ! . ولقد رأيت قوماً لايسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ، فيبلغ عنه أشراف قريش ماجاء له ، فقال له : يارسول الله ، إنى أخاف قريشاً على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها . وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان

وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظما لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة ... حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأرسله به .

فقالوا لعثمان حين بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واحتبسته قريش عندها .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن عثمان قد قتـــل : لا نبرح حتى نناجز القوم .

بيعة الرضوان

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

وكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم على الموت

فبـايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتخلف عنه أحـد من المسلمين حضرها .

وكان بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : آت محمداً فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هـــذا ، فوالله لاتتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبدا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .

فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فأطال الكلام .

وتراجعا ... ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب ... ماذا حدث ؟ .

عمر يرفض الصلح !

وثب عمر فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ .

قال : بلى .

قال : أولسنا بالمسلمين !

قال : بلى .

قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ .

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ! .

قال أبو بكر : يا عمر .. الزم غَرزَه . فإنى أشهد أنه رسول الله .

قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله . . . ألست برسول الله ؟ .

قال : بلى .

قال : أو لسنا بالمسلمين ؟

قال : بلى .

قال . أو ليسوا بالمشركين ؟ .

قال : بلى .

قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ! .

قال : أنا عبد الله ورسوله .. لن أخالف أمره .. ولن يضيعني .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ..

الهـدنة

فقال : اكتب . بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لاأعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ...

قال : اكتب ... هذا ماصالح عليه محمد رسول الله ، سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب ... هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله ، سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتواثبت خزاعة . فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده .

وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .. وإنك ترجع عامك هذا ، فلاتدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف فى القرب ، لاتدخلها بغيرها .

ابن سفير قريش يأتي مسلماً !

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما رأوا مارأوا من الصلح ، والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون .

فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام إليه ، فضرب وجهه ، وأخذ بتلبيبه وقال : يا محمد .. قد لجت القضية بينى وبينك ؛ قبل أن يأتيك هذا ؟ .

قال : صدقت ...

فجعل ينتره بتلبيبه ، ويجره ، يعنى يرده إلى قريش ! .

وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين .. أرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ !

فزاد ذلك الناس إلى مابهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياأبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب .

ويدنى عمر قائم السيف منه .

يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب أباه .

فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية .

شهود الصلح

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب أشهد على الصلح رجالا من المسلمين ، ورجالا من المشركين .

أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله ابن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك ، وعليّ بن أبي طالب وكان هو كاتب الصحيفة .

يتحلل من إحرامه

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضارباً خيامه خارج منطقة الحرم ، وكان يصلي فى الحرم .

فلما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق رأسه .

فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحر وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .

نزول سورة الفتح

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلا .

حتى إذا كان بين مكة والمدينة ، نزلت سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) . ثم كانت القصة فيه وفى أصحابه ، حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال جل ثناؤه : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) .

ثم قال الله تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرة فَعَلِمَ مافى قلوبهمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخذونها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً وَعَدَكُمُ اللهُ مغانِمَ كثيرةً تَأْخُذُونهَا فَعَجَّل لكمْ هَذِهِ وَكَفَّ أيدِى الناسِ عنكمْ وَلِتَكُون آيَةً للمؤْمنين وَيَهْدِيَكُمْ صراطاً مُسْتَقِيماً . وَأُخرَى لم تَقْدِرُوا عليها قد أحاطَ اللهُ بها ، وكانَ الله على كل شىء قديراً) .

ثم قال تبارك وتعالى : (إِذْ جَعَلَ الذين كفروا فى قُلُوبهمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ) يعنى سهيل بن عمرو ، حين حمى أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم وأن محمداً رسول الله .

ثم قال تعالى : (لقدْ صَدَقَ اللهُ رسَولَهُ الرُّؤْيا بالحقّ لتَدْخُلُنّ المسْجِدَ الحَرَامَ إن شاء الله آمِنين مُحَلِّقِينَ رُءوسكمْ ومُقَصِّرِين لاتخافون فعَلِمَ مالمْ تعلمُوا) أى : لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى رأى أنه سيدخل مكة آمناً لايخاف .

ثم يقول تبارك وتعالى : (فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قريباً) صلح الحديبية .

فما فتح فى الإسلام فتح ، قبله كان أعظم منه .

إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يُكلمْ أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه .

ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر والدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف !.

الثمار الأولى للصلح

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أتاه أبو بصير ، وكان ممن حبس بمكة .

فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتبت فيه قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثوا رجلا ومعه مولى لهم .

فقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك » .

قال : يارسول الله ، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ .

قال : « يا أبا بصير ، انطلق ، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرَجاً ومخرجاً » .

فانطلق معهما ...

حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار ، وجلس معه صاحباه .

فقال أبو بصير : أصارمٌ سيْفكَ هذا ياأخا بني عامر ؟ .

فقال : نعم .

قال : انظر إليه ؟ .

قال : انظر إن شئت .

فاستلّهُ أبو بصير ، ثم علاه به حتى قتله .

وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم طالعاً قال : « إن هذا الرجل قد رأى فزَعاً »

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك ؟! مالك ؟ » .

قال : قتَل صاحبكم صاحبي .

فما برح حتى طلع أبو بصير مُتوشِّحاً بالسيف ، حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، وفَتْ ذِمَّتك ، وأدَّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه ، أو يعبثَ بى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويلُ أمِّهِ مِحَشَّ حَرْبٍ[1] ، لو كان معه رجالٌ » .

ثم خرج أبو بصير حتى نزل على ساحل البحر بطريق قريش ، التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام .

وبلغ المسلمين الذين كانوا حُبِسوا بمكة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بصير « ... لو كان معه رجال » .

فخرجوا إلى أبى بصير ، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا .

وكانوا قد ضيَّقوا على قريش ، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها .

حتى كتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها إلا آواهم ، فلا حاجة لهم بهم ! .

فآواهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدموا عليه المدينة .

وكانت تلك هى القطاف الأولى لصلح الحديبية ! .

المؤمنات المهاجرات

وهاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كلثوم بنت عُقبَة بن أبى مُعَيْط فى تلك المدة .

فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة ، حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألانه أن يرُدَّها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية .

---

(١) أى أنه يوقد الحرب ويهيجها ويشعل نارها .

فلم يفعل ... وأبى الله ذلك ...

يقول تبارك وتعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامْتحِنوهُنَّ الله أعلَمُ بإيمانِهِنَّ فإنْ عَلمتُمُوهُنَّ مؤمنـاتٍ فلا ترْجِعُوهُنَّ إلى الكفار لاهنَّ حلٌّ لهمْ ولاهمْ يحلون لهنَّ وآتوهمْ ماأنفقوا ولا جناحَ عليكمْ أن تنكحوهنَّ إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ ولا تمسكوا بعصَمِ الكَوافِرِ) ...

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه .

فلما هاجر النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام ، أبى الله أن يرْدَدْن إلى المشركين ، إذا هن امتحن بمحنة الإسلام فعرفوا أنهن إنما جئْن رغبة فى الإسلام ، وأمر برد صدقاتهن إليهم إن احتبسْن عنهم ، إن هم ردوا على المسلمين صداقِ من حبسوا عنهم من نسائهم ، ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ورد الرجال .

ولولا الذى حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء كما رَدَّ الرجال .

ولولا الهدنة والعهد الذى كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرْددْ لهن صداقاً ، وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد .

دعوة ملوك الأرض إلى الإسلام

وفى ذى الحجة من سنة ست من الهجرة ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة من أصحابه إلى ملوك الأرض فى ذلك الزمان .

حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية .

وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ملك عرب النصارى .

ودحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ، وهو هرقل ملك الروم .

وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس .

وسليط بن عمرو إلى هوذة بن على الحنفى .

وعمرو بن أمية إلى النجاشى ملك النصارى بالحبشة ، وهو أصحمة بن الحُر .

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم دائم الدعوة إلى ربه ، ما كاد يعقد صلح الحديبية ، ويرجع إلى المدينة ، حتى أخذ يبعث رسله إلى أنحاء الأرض .

قصة قيصر

قال أبو سفيان : كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة - هدنة الحديبية - بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نأمن إن وجدنا أمناً .

فخرجت تاجراً إلى الشام ، مع رهط من قريش ، فوالله ما علمت بمكة امرأة ولا رجلا إلا وقد حملنى بضاعة .

وكان وجه متجرنا من الشام غزة ، من أرض فلسطين ، فخرجنا حتى قدمناها

وذلك حين ظهر قيصر صاحب الروم ، على من كان فى بلاده من الفرس فأخرجهم منها ، ورد عليه صليبه الأعظم ، وقد كان استلبوه إياه .

فلما أن بلغه ذلك ، وقد كان منزله بحمص من الشام ، فخرج منها يمشى متشكراً إلى بيت المقدس ، ليصلى فيه ، تبسط له البسط ، ويطرح عليها الرياض ! حتى انتهى إلى إيلياء ، فصلى بها .

فأصبح ذات غداة وهو مهموم ، يقلب طرفه إلى السماء .

فقالت له بطارقته : أيها الملك ، لقد أصبحت مهموماً ؟ .

فقال : أجل .

فقالوا : وماذاك ؟ .

فقال : أريت فى هذه الليلة ، أن ملك الختان ظاهر .

فقالوا : والله ما نعلم أمة من الأمم تختتن إلا اليهود ، وهم تحت يديك ، وفى سلطانك ، فإن كان قد وقع ذلك فى نفسك منهم ، فابعث فى مملكتك كلها ، فلا يبقى يهودى إلا ضربت عنقه ، فتستريح من هذا الهم .

فإنهم فى ذلك من رأيهم يديرونه بينهم ، إذ أتاهم رسول صاحب بصرى برجل من العرب قد وقع إليهم ، فقال : أيها الملك ، إن هـذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل ، يحدثك عن حدث كان ببلاده ، فاسأله عنه .

فلما انتهى إليه ، قال لترجمانه : سله ماهذا الخبر الذى كان فى بلاده ؟

فسأله فقال : هو رجل من العرب ، من قريش ، خرج يزعم أنه نبى وقد اتبعه أقوام ، وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم ، فى مواطن ، فخرجت من بلادى وهم على ذلك .

فلما أخبره الخبر ، قال : جردوه .. فإذا هو مختتن . فقال : هذا والله الذى قد أريت ، لا ماتقولون ، أعطه ثوبه ، انطلق لشأنك .

ثم إنه دعا صاحب شرطته ، فقال له : قلب لى الشام : ظهراً لبطن ، حتى تأتى برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه .

قال أبو سفيان : فوالله إنى وأصحابى لبغزة إذ هجم علينا فسألناه : ممن أنتم ؟

فأخبرناه ... فساقنا إليه جميعاً .

فلما انتهينا إليه قال : أيكم أمس به رحما ؟ .

فقلت : أنا .

قال : ادنوه منى .

فأجلسنى بين يديه ، ثم أمر أصحابى فأجلسهم خلفى ، وقال : إن كذب فردوا عليه .

فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج فيكم .

فزهدت له شأنه ، وصغرت له أمره ، فقلت : سلنى عما بدا لك ؟ .

قال : كيف نسبه فيكم ؟ .

قلت . محضاً من أوسطنا نسباً .

قال : فأخبرنى هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟ .

فقلت : لا .

قال : فأخبرنى هل له ملك فأستلبتموه إياه فجاء بهذا الحدبث لتردوه عليه ؟

فقلت : لا .

قال : فأخبرنى عن اتباعه من هم ؟ .

فقلت:الأحداث والضعفاء والمساكين، فأما أشرافهم وذووالأنساب منهمفلا.

قال : فأخبرنى عمن صحبه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه ؟ .

قلت : ماصحبه رجل ففارقه .

قال : فأخبرنى عن الحرب بينكم وبينه ؟ .

فقلت : سجال يدال علينا وتدال عليه .

قال : فأخبرنى هل يغدر ؟ .

قال أبو سفيان : فلم أجد شيئاً أغره به إلا هى .

قلت : لا .. ونحن منه فى مدة ، ولا نأمن غدره فيها ـ فوالله ما التفت إليها منى ـ

قال : زعمت أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبى لايأخذه إلا من أوسط قومه ، وسألتك هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به فقلت لا ، وسألتك هل كان له ملك فاسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه فقلت لا ، وسألتك عن أتباعة فزعمت أنهم الأحداث والمساكين والضعفاء وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أنه قل من يصحبه فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان ، لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك كيف الحرب بينكم وبينه ، فزعمت أنها سجال ، يدال عليكم وتدالون عليه وكذالك يكون حرب الأنبياء ، ولهم تكون العاقبة ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أنه لايغدر ، فلئن كنت صدقتنى ليغلبن على ماتحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده ، فأغسل عن قدميه .

ثم قال : الحق بشأنك .

فقمت وأنا أضرب إحدى يدى على الأخرى وأقول : ياعباد الله ... أصبح ملوك بنى الأصفر يخافونه فى سلطانهم ! .

ماذا فى الكتاب ؟

قالوا : وقدم دحية بن خليفة على هرقل ، بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن أبيت فإن إثم الأكاريين (الفلاحين) عليك .

قالوا : فلما انتهى إليه كتابه وقرأه ، أخذه فجعله بين فخذه وخاصرته .

ثم كتب إلى رجل من أهل رومية ، كان يقرأ من العبرانية مايقرأ ، يخبره عما جاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكتب إليه إنه النبى الذى ينتظرك لاشك فيه فاتبعه .

فأمر بعظماء الروم ، فجمعوا له فى دسكرة ملكه ، ثم اطلع عليهم من علية له وهو منهم خائف ، فقال : يامعشر الروم .. إنه قد جاءنى كتاب أحمد ، وإنه والله النبى الذى كنا ننتظر ، ومجل ذكره فى كتابنا ، نعرفه بعلاماته وزمانه ، فأسلموا واتبعوه ، تسلم لكم دينكم وآخرتكم .

فنخروا نخرة رجل واحد ، وابتدروا أبواب الدسكرة فوجدوها مغلقة دونهم ـ فخافهم وقال : ردوهم على ، فردوهم عليه ، فقال لهم : يامعشر الروم ، إنى إنما قلت لكم هذه المقالة أختبركم بها ، لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فلقد رأيت منكم ماسرنى .

فوقعوا له سجداً ... ثم فتحت لهم أبواب الدسكرة فخرجوا !! .

قصة كسرى

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب إلى كسرى .

فأمر كسرى بإيوانه أن يزين ، ثم أذن لعظماء فارس ، ثم أذن لشجاع ابن وهب .

فلما أن دخل عليه ، أمر كسرى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبض منه .

فقال شجاع بن وهب : لا … حتى أدفعه أنا إليك ، كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال كسرى : ادنه .

فدنا ، فناوله الكتاب ، ثم دعا كاتباً له من أهل الحيرة فقرأه فإذا فيه :

« من محمد بن عبد الله ورسوله ، إلى كسرى عظيم فارس » .

فأغضبه حين بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصاح ، وغضب ، ومزق الكتاب قبل أن يعلم مافيه !!

وأمر بشجاع بن وهب فأخرج .

فلما رأى شجاع ذلك ، قعد على راحلته ، ثم سار ، ثم قال : والله ما أبالي على أي الطريقين أكون إذ أديت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

ولما ذهب عن كسرى سورة غضبه ، بعث إلى شجاع ليدخل عليه ، فالتمس فلم يوجد ! .

فلما قدم شجاع على النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مزق كسرى ملكه » .

قصة المقوقس

عن حاطب بن أبي بلتعة قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى المقوقس ، ملك الإسكندرية ، فجئته بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأنزلنى فى منزله ، وأقمت عنده .

ثم بعث إلى ، وقد جمع بطارقته وقال : إنى سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عنى .

قلت : هلم .

قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟.

قلت : بل هو رسول الله .

قال : فما له حيث كان هكذا ، لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ !

فقلت : عيسى بن مريم ، أليس تشهد أنه رسول الله ؟ .

قال : بلى .

قلت : فما له حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يصلبوه ، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا ؟

فقال لى : أنت حكيم ، قد جاء من عند حكيم .. هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد ، وارسل معك بحرس يحرسونك إلى مأمنك .

فأهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث جوار ، منهن أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواحدة وهبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت الأنصارى ، وأرسل إليه بهدايا طريفة من طرائفهم .

وكان فى جملة الهدية ، غلام أسود خصى ، وخفين ساذجين ، وبغلة بيضاء اسمها الدلدل ! .

غَزوَة خَيبَر

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ـ حين رجع من الحديبية ـ ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر .

ودفع الراية إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانت بيضاء .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه .

« قفوا » .

ثم قال : « اللهم ربَّ السماوات وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرَضين وما أقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطين وما أضلَلْنَ ، وربَّ الرياح وما أذرَيْنَ ، فإنا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذُ بك من شرها ، وشر أهلها ، وشر مافيها ، أقدموا ، بسم الله » .

الله أكبر ، خربت خيبر

عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غز قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار .

فنزلنا خيبر ليلا ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً ، فركب وركبنا معه . . .

واستقبلنا عُمّال خيبر غادين ، قد خرجوا (بفؤوسهم وقففهم) . . .

فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والجيش معه . . دبروا هُرّاباً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهُ أكبرُ ، خَرِبَتْ خيبرُ ، إنا

افتتاح الحصون

وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الحصون حصناً حصناً ، الأدنى فالأدنى .

فكان أول حصونهم افتُتح حصن ناعمٍ .

ثم القَموص حصن بنى أبى الحُقَيْق .

وأصابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها سبايا : منهن صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب .

وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين .

ثم افتتح المسلمون حصن الصعب بن مُعاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً منه .

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ماافتتح ، وحاز من الأموال ماحاز ، انتهى إلى حصنيهم ، الوَطيح والسُّلالم ، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة .

وكان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر « يامنصور أَمِتْ أَمِتْ » .

مرحب اليهودى

خرج مَرْحبٌ اليهودى من حصنهم ، قد جمع سلاحه يرتجز :

قد علمتْ خيبرُ أنّى مَرْحبُ شاكى السِّلاحِ بطَلٌ مجرَّبُ
أطعَنُ أحيانًا وحينًا أضربُ إذا الليُوثُ أقبلَتْ تحرَّبُ

وهو يدل بنفسه . ويقول : من يبارز ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لهذا ؟ » .

قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله . . . أنا والله الموتُورُ الثائر ، قتل أخى بالأمس .

قال : « قُمْ إليه .. اللهم أعِنهُ عَلَيْهِ » .

فلما دنا أحدهما من صاحبه ، دخلت بينهما شجرة قديمة طويلة العمر ، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه ؛ كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه

مادونه منها ، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه ، وصارت بينهما كالرجل القائم ، مافيها غصن .

ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه فاتقاه بدَرَقة ، فوقع سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته .

وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

مصرع ياسر اليهودى

ثم خرج بعد مَرْحب أخوه ياسر ، وهو يقول : من يبارز ؟

فخرج إليه الزبير بن العوام ، فالتقيا ، فقتله الزبير .

بطولة على بن أبى طالب

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق برايته إلى بعض حصون خيبر . فقاتل فرجع ولم يك فتح ، وقد أصابه جهد ومشقة .

ثم بعث الغد عمر بن الخطاب ، فقاتل ثم رجع ولم يك فتح ، وقد أصابه جهد ومشقة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية غداً رجلا يُحِب الله ورسولَه ، يفتحُ الله على يديهِ ، ليس بفرَّارٍ » .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ثم قال : خذْ هذه الراية ، فامضِ بها حتَّى يفتح اللهُ عليك » .

فخرج بها يُهرول هرولة ، حتى ركز رايته فى حجارة مجتمعة تحت الحصن . ومعه نفر من أصحابه .

فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن : فقال : مَنْ أنت ؟ .

قال : أنا على بن أبى طالب .

قال : علوتُم ، وما أُنزِلَ على موسى .

فما رجعَ حتى فتح الله على يديه .

استسلام خيبر

وحاصر رسول الله صلى الله علية وسلم أهل خيبر فى حصنيهم ، الوطيح والسُّلالم ، حتى إذا أيقنوا بالهـــلاك ، سألوه أن ينفيهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ، ففعل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استولى على الأموال كلها ، وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينِكَ الحصنين .

فلما سمع بهم أهـل فدك ، قد صنعوا ماصنعوا ، بعثـوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن ينفيهم ، وأن يحقن دماءهم ويخَلُّوا له الأموال ، ففعـــل .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف .

وقالوا : نحن أعلم بها منكم ، وأعمر لها .

فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، على أنا إذا شئنـا نخرجكم أخرجناكم .

فصالحه أهل فدك على مثل ذلك .

فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين .

وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لم يُجلِبُوا عليها بخيل ولا ركاب .

دس السم لرسول الله !

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحرث زوجة سَلاَّم بن مشكم اليهودية ، شاة مشوية .

وقد سألت . أى عضو من الشاة ، أحب إلى رسول الله ؟ .

فقيل لها : الذراع .

فأكثرت فيها من السّم ، ثم سمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها .

فلما وضعتها بين يدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع . فلاك منها مُضْغَةً فلم يبلعها .

ومعه بشرُ بن البراء ، وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأما بشر فأساغها .

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ورماها ، ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرنى أنهُ مسمُومٌ » ثم دعا بها فاعترفت .

فقال : « ماحملكِ على ذلك » ؟ .

قالت : بلغتَ من قومى مالم يخفَ عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخْبرُ .

فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

ومات بشر من أكلته التى أكل .

حصار وادى القرى

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، انصرف إلى وادى القرى ، فحاصر أهله ليالى ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

يناموں عن صلاة الصبح !

لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، فكان ببعض الطريق قال من آخر الليل : « مَنْ رَجُلٌ يحفظُ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ » .

قال بلال : أنا يارسول الله أحفظه عليك .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل الناس ، فناموا .

وقال بلال يصلى ، فصلى ماشاء الله عز وجل أن يصلى ، ثم استند إلى بعيره ، واستقبل الفجر يرمُقه ، فغلبته عينه ، فنام ، فلم يوقظهم إلا مس الشمس .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه هب ، فقال : « ماذا صنعت بنا يابلالُ ؟ » .

قال : يارسول الله ، أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال : صَدَقْتَ .

فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس .

فلما سلم وأقبل على الناس فقال : « إذا نسيتُمُ الصلاةَ فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : أقم الصلاة لذكرى » .

وكان فتح خيبر فى صفر من السنة السابعة من الهجرة .

النساء يشتركن فى الغزو

وشهد خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء من نساء المسلمين ، فأعطاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفىء ، ولم يضرب لهن بسهم .

رَوَوْا عن امرأة من بنى غفار : أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من غفار .

فقلنا : يارسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ؟ ـ وهو يسير إلى خيبر ـ فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا ؟ .

فقال : « على بَرَكَةِ الله » .

قالت : فخرجنا معه ، وكنت فتاة حدثة ، فأردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبةِ رَحْلِهِ .

قالت : فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ، وأناخ ، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ ، وإذا بها دمٌ منِّى ، وكانت أول حيضةٍ حضتها .

قالت : فتقبَّضتُ إلى الناقة واستَحْيَيْتُ ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابى ، ورأى الدم ؛ قال : « مالَكِ ؟ لعلَّكِ نُفِسْتِ[1] »

(١) نفست : حضت .

قالت : نعم .

قال : فأصْلِحِى من نفسك ، ثم خُذِى إناءاً من ماء فاطرحى فيه ملحاً ، ثم اغسلى به ما أصابت الحقيبة من الدم ، ثم عودى لمركبك .

قالت : فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، أعطانا من الفىء وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنق فأعطانيها ، وعلقها بيده فى عنق ، فو الله لا تفارقنى أبداً .

فكانت فى عنقها حتى ماتت ! .

وهكذا كان الصحابيات الجليلات يشتركن فى الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطيهن مما أفاء الله عليه .

قدوم جعفر من الحبشة

ثم إن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خيبر .

فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه ، والتزمه ، وقال : « ما أدرى بأيِّهما أنا أُسَرُّ ، بفتح خيبر أم بقدُوم جعفر ؟ » .

وكان معه رجال ونساء ممن أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى ، عمرو بن أميَّة فحملهم فى سفينتين ، فقدم بهم عليه صلى الله عليه وسلم ، وهو بخيبر بعد الحديبية .

العودة من خيبر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من خيبر ، أقام بها شَهْرَىْ ربيع ، وجُمَادَيَيْن ، ورجبا ، وشعبان ، ورمضان ، وشوالا يبعث فيما بين ذلك سراياه .

عُمْرَةُ القَضَاءِ

ثم خرج فى ذى القعدة ، فى الشهر الذى صدَّه فيه المشركون ، معتمرا عمرة القضاء ، مكان عمرته التى صدوه عنها .

لأنهم صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست ، فاقتصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، فدخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام ، الذى صدوه فيه من سنة سبع .

وخرج معه المسلمون ممن كان صُد معه فى عمرته تلك ، وهى سنة سبع

فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه .

وتحدثت قريش بينها أن محمدا وأصحابه فى عُسْرَةٍ وجَهْد وشِدَّة .

عن ابن عباس قال : صَفُّوا له عند دار النَّدْوة لينظروا إليه وإلى أصحابه .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم — المسجد اضطبع[1] بردائه ،

وأخرج عَضُدَهُ اليمنى ثم قال : « رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة » .

ثم استلم الركن ، وخرج يهرول[2] ويهرول أصحابه معه .

حتى إذا واراه البيت منهم ، واستلم الركن اليمانى ، مشى حتى يستلم الركن الأسود .

ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها .

وحين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى تلك العمرة ، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام[3] ناقته يقول :

خلُّوا بنى الكفار عن سبيله   خلُّوا فكلُّ الخير فى رسوله

---

(١) الاضطباع : أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمنى ويجعل طرفه على منكبه الأيسر .

(٢) الهرولة : فوق المشى ودون الجرى .

(٣) الخطام : الحبل الذى تقاد به الناقة .

زواج ميمونة بنت الحارث

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمُونة بنت الحارث في سفره ذلك ، وكان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب .

وكانت ميمونة جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس ، فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم .

وذكروا أنه لما انتهت إليه خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، وهي راكبة بعيراً ، قالت : الجمل وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها نزلت الآية (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) .

قريش تطلب إليه الرحيل !

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاثاً ، فأتاه حُوَيْطب بن عبد العُزى ، في نفر من قريش في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وما عَلَيْكُمْ لو تركتموني فأعْرست بين أظهُرِكم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟ » .

قالوا : لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة .

فأنزل الله عز وجل عليه : (لقد صَدَقَ الله رسولهُ الرُّؤيا بالحق لتَدْخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنينَ رؤُسَكُمْ ومُقَصرِين محلقينَ لا تخافون ...) .

قبل فتح مكّة

عمرو بن العاص يأتى مسلما !

نحن فى أوائل سنة ثمان من الهجرة .

وها هو عمرو بن العاص يأتى مسلما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان ذلك فى صفر سنة ثمان من الهجرة .

يقول عمرو : .... فابتعت بعيراً ، وخرجت أريد المدينة ، حتى مررت على مر الظهران ، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة ، فإذا رجلان قد سبقانى بغير كثير ، يريدان منزلا ، وأحدهما داخل فى الخيمة ، والآخر يمسك الراحلتين :

قال : فنظرت ... فإذا خالد بن الوليد .

قلت : أين تريد ؟

قال : محمدا ، دخل الناس فى الإسلام ، فلن يبق أحد به طعم : والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها .

قلت : وأنا والله قد أردت محمدا ، وأردت الإسلام ! .

فخرج عثمان بن طلحة ، فرحب بى ، فنزلنا جميعاً فى المنزل .

ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة ... فما أنسى قول الرجل لقيناه يقول : قد أعطت مكة المقادة بعد هذين .

وظننت أنه يعنينى ، ويعنى خالد بن الوليد ، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً ، فظننت أنه بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدومنا ، فكان كما ظننت .

وأنخنا بالحرة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودى بالعصر ، فانطلقنا حتى أطلعنا عليه ... وإن لوجهه تهللا ، والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا .

فتقدم خالد بن الوليد فبايع .

ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع .

ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه ، فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه .

فبايعته على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبي ، ولم يحضرني ما تأخر ، فقال :

« إن الإسلام يجُب ما كان قبله ، والهجرة تجُب ما كان قبلها » .

خالد يروى قصة إسلامه !

عن خالد بن الوليد قال : لما أراد الله بى ما أراد من الخير ، قذف فى قلبى الإسلام ، وحضرنى رشدى ، فقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ، فليس فى موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية ، خرجت فى خيل من المشركين ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا .

فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا .

فاطلع على ما فى أنفسنا من الهم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر ، صلاة الخوف .

فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالرواح ، قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟

أين أذهب ؟ . إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه عنده آمنون ! فأخرج إلى هرقل ، فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ، فأقيم فى عجم ، فأقيم فى دارى بمن بقى ؟

فأنا فى ذلك ، إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضاء . فتغيبت ، ولم أشهد دخوله .

وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عمرة القضـــاء .

فطلبنى ، فلم يجدنى ، فكتب إلى كتاباً ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ؟ ومثل الإسلام جهله أحد ؟ ! . وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنك وقال : أين خالد ؟ . فقلت يأتى الله به . فقال : « مثله جهل الإسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدمناه على غيره » فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة .

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرنى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى . . . .

فخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى فخرجت بها ، إلى أن لقيت عثمان ابن طلحة . . .

فخرجنا سَحَرا ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة ، فنجد عمرو بن العاص بها . قال : مرحباً بالقوم ، فقلنا : وما أخرجك ؟ . فقال : وما أخرجكم ؟ . قلنا : الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال : وذاك الذى أقدمنى .

فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة ... فلقينى أخى ، فقال : أسرع ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك ، فسر بقدومك ، وهو ينتظركم .

فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال يتبسم إلى ، حتى وقفت عليه .

فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق .

فقلت إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال : « تعال » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت

أرى لك عقلا ، رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير » .

قلت : يارسول الله ، إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن ، عليك معانداً للحق ، فادعو الله أن يغفرها لى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يجُبّ ما كان قبله » .

قلت : يارسول الله على ذلك ؟ .

قال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد ، كل ماأوضع فيه من صد عن سبيل الله » .

قال خالد : وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان ، والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه .

وهكذا . . دخل خالد الإسلام . . . ليكون من بعد ذلك أعظم قائد حربى شهدته الأرض !

وكذلك تتجلى عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسية .

غزوة مؤتة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية ذى الحجة بالمدينة ، والمحرم ، وصفرا ، وشهرى ربيع ، وبعث فى جمادى الأولى بعثه إلى الشام .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى مؤتة فى جمادى الأولى من سنة ثمانٍ من الهجرة .

واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إنْ أصيبَ زيدٌ فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفرٌ فعبدُ اللهِ بن رواحة على الناس » .

فتجهز الناس ، ثم تهيئوا للخروج .

وهم ثلاثة آلاف .

فلما حضر خروجهم ، ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم .

ثم خرج القوم ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشيعهم .

٢٠٠٠٠٠ من الروم !

ثم مضوا ، حتى نزلوا مُعان من أرض الشام .

فبلغ الناس أن هرقل ، قد نزل من أرض البَلْقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم مائة ألف آخرين من المستعربة .

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا ليلتين يفكرون فى أمرهم .

وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضى له .

فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ، ولا كثرة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الْحُسْنَيَيْن : إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بحدود البلقاء ، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب .

ثم دنا العدو ... فتعبأ لهم المسلمون .

ثم التقى الناس ، واقتتلوا ...

فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى هلك فى رماح القوم .

ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى إذا ألحمَهُ القتال ، رمى بنفسه عن فرس له شقراء ، فعقرها ، ثم ترجل ، وقاتل القوم حتى قتل . وهو يقول :

يا حبَّذا الجنةُ واقترابُها   طَيِّبةَ وبارداً شرابُها

هذه هي بطولة جعفر!

وكان جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت فاحتَضَنه بِعَضُدَيْه[١] حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

ويقال : إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة ، فقطعه نصفين .

الشهيد الثالث

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، ثم تقدم بها ـ وهو على فرسه ـ فجعل يستنزل نفسه ، ويتردَّدُ بعض التردد .

ثم نزل ... ثم أخذ سيفه فتقدم ، فقاتل حتى قُتل .

خالد يأخذ الراية

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم ، فقال : يامعشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم .

قالوا : أنت .

قال : ما أنا بفاعل .

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه ، حتى انصرف الناس .

ولقد كانت عبقرية عالية لخالد بن الوليد رضي الله عنه أن يخلص بثلاثة آلاف من المسلمين من بين مائتي ألف من الأعداء .

رووا أنه لما قتل ابن رواحة مساء ، بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا ، وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرته .

فأنكر الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم وقالوا : قد جاءهم مدد ! فرعبوا وانكشفوا منهزمين ! .

(١) حضن الرجل : ما تحت العضد إلى أسفل .

إنه سيف من سيوفك

ومن حديث طويل : « ... فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، فأمر فنودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أخبركم عن جيشكم هذا ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيداً ، فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً ، فاشهد له بالشهادة واستغفر له ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ، فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنه سيف من سيوفك انت تنصره » فمن يومئذ سمى خالد سيف الله .

فلما انصرف خالد بالناس ، أقبل بهم قافلا .

فلما دنَوْا من حول المدينة ، تلقَّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب ويقولون : يافُرَّارُ فررتم فى سبيل الله ؟ ! .

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرَّار إن شاء الله تعالى » .

غزوة ذات السلاسل

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بلى ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم يتألفهم حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل ـ وبه سميت تلك الغزوة ـ خاف من كثرة عدوه . فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده .

فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين الأولين . فانتدب أبو بكر وعمر فى جماعة من سراة المهاجرين ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم أبا عبيدة بن الجراح .

فلما قدموا على عمرو قال : أنا أميركم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستمده بكم .

فقال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك ، وأبو عبيدة أمير المهاجرين .

فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمددته .

فلما رأى ذلك أبو عبيدة ، وكان رجل حسن الخلق لين الشيمة ، قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا » ، وإنك إن عصيتنى لأطيعنك .

فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص .

ولما آب إلى عمرو بن العاص أبو عبيدة بن الجراح ، فصاروا خمسمائة فساروا الليل والنهار ، حتى وطىء بلاد بلى ودوخها .

وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع ، فلما سمعوا بك تفرقوا ، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى .

وحمل المسلمون عليهم ، فهزموا ، وأعجزوا هرباً فى البلاد ، وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هناك .

فَتح مَكّة

أسباب فتح مكة

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجبــاً .

ثم إن بنى بكر عدت على خزاعة .

وقد مضى أنه لما كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش كان فيما شرطوا له وشرط لهم ، أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده .

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً .

واعتدت بنو بكر على خزاعة وقاتلتها ، وقاتل من قريش من قاتل مع بنى بكر !

ثم خرج نفر من خُزاعة ، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينــة .

فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .

أبو سفيان فى المدينة

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه !

فقال : يابُنية ، ماأدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟

قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ! .

قال : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً .

ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماأنا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! . فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به .

ثم خرج فدخل على عَلِيّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها حسن بن على يدب بين يديها فقال : ياعلى إنك أمس القوم بى رحماً ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ويحك ياأبا سفيان ! ! . والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ، مانستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت إلى فاطمة فقال : ياابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت : والله مابلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس ، ومايجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : ياأبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى .

قال : والله ماأعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجرْ بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

قال . أوترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ؟

قال : لاوالله ماأظنه ، ولكنى لاأجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان إلى المسجد ، فقال : ياأيها الناس ، إنى قد أجرْت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ماوراءك ؟ .

قال : جئت محمداً ، فكلمته ، فوالله مارد على شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم أتيت علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار على بشيء صنعته ، فوالله ماأدرى هل يغني ذلك شيئاً أم لا ؟ .

قالوا : وبم أمرك ؟ .

قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت .

قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ .

قال : لا .

قالوا : ويلك !. والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فمايغني عنك ماقلت؟.

قال : لا والله ماوجدت غير ذلك .

الأمر بالتعبئة

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالتعبئة . وأمر أهله أن يجهِّزُوه .

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها ، وهى تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أى بنية أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه ؟ .

قالت : نعم ، فتجهَّزْ .

قال : فأين تُرَيْنَهُ يريد ؟ .

قالت : والله ماأدرى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة .

وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

فتجهز الناس ...

كتاب إلى قريش

لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش ، يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر فى السير إليهم .

ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها أجرا ، على أن تبلغه قريشاً .

فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء ، بما صنع حاطب .

فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها ... فاستنزلاها ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً .

فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجد منه قالت : أعرض .

فأعرَضَ ، فحلَّتْ قرون رأسها ، فاستخرَجَتْ الكتاب منها ، فدفعته إليه .

فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، فقال : « ياحاطب ما حملك على هذا ؟ » .

فقال : يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ماغيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ياعمر ، لعل الله قد اطّلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم » .

فأنزل الله تعالى فى حاطب : (يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة) .

الخروج فى رمضان

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره ، واستخلف على المدينة أبارُهم كلثوم بن حصين .

وخرج لعشر مضين من شهر رمضان من سنة ثمان من الهجرة .

فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكدَيْدِ أفطر .

ثم مضى حتى نزل مَرَّ الظهران ، فى عشرة آلاف من المسلمين .

وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار ، فلم يتخلف منهم أحد .

قصة إسلام العباس بن عبد المطلب

وقد كان العباس بن عبد المطلب لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق ، لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض .

وهكذا خرج العباس مهاجراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده فى أثناء الطريق ، وهو ذاهب إلى فتح مكة .

قصة إسلام أبى سفيان

فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران ... قال العباس ابن عبد المطلب : فقلت : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة ، قبل أن يأتوه فيستأمنوه : إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

قال : فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت

عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلى أجد بعض الحطابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه ، قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فوالله إنى لأسير عليها ، وألتمس ماخرجت له ، إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبُدَيل بن ورقاء وهما يتراجعان .

وأبو سفيان يقول : مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ؟! .

فيقول بديل : هذه والله خزاعة ، حمستها الحرب .

فيقول أبوسفيان : خزاعة أذل وأقل ، من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : ياأبا حنظلة ؟ .

فعرف صوتى ، فقال : أبو الفضل ؟ .

قلت : نعم .

قال : مالك فداك أبى وأمى ؟

قلت : ويحك ياأبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس واصباح قريش والله ؟ .

قال : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ .

قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأستأمنه لك .

فركب خلفى ورجع صاحباه .

فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا ؟ .

فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عليها قالوا : عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته .

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ ! وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ !

الحمد لله الذى أمكن منك ، بغير عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتدُّ نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وركضت البغلة ، فسبقته بما يسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء .

فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله ، هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه ، بغير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه .

قلت : يارسول الله إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » .

فذهبت به إلى خيمتى ، فبات عندى ، فلما أصبح غدَوْت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » .

قال : « بأبى أنت وأمى ، ماأحلمك وأكرمك وأوصلك !!! . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئاً بعد » .

قال : « ويحك ياأبا سفيان !! . ألم يأنِ لكَ أن تعلم أنِّى رسول اللهِ ؟ »

قال : بأبى أنت وأمى ، ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! . أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً .

فقال له العباس : « ويحكَ أسلِم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك .

فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

قال العباس : قلت : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً .

قال : « نعم .. من دخل دار أبي سفيانَ فهو آمنٌ ، ومن أغلَقَ عليه بابَهُ فهو آمنٌ ، ومن دخل المسجد فهو آمنٌ » .

عرض الجيش

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعباس ، احبسه بمضيق الوادى ، عند خَطْم الجبل[1] ، حتى تمر به جنود الله فيراها » .

قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى ، حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه .

ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : ياعباس من هذه ؟ ! فأقول: سليم ، فيقول : مالى ولسليم ؟ .

ثم تمر القبيلة فيقول : ياعباس من هؤلاء ؟ . فأقول : مزينة ، فيقول : مالى والمزينة ؟ .

حتى نفذت القبائل ، ماتمر قبيلة إلا يسألنى عنها ، فإذا أخبرته بهم قال : مالى ولبنى فلان .

حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء .

وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

فيها المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم ، لا يُرَى منهم إلا الحَدق من الحديد.

فقال : سبحان الله ياعباس من هؤلاء ؟ !! .

قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى المهاجرين والأنصار .

قال : مالأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة ، والله ياأبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

قلت : ياأبا سفيان إنها النُّبوَّة .

قال : فنعم إذن .

---

(١) أنف الجبل ، وهو شىء يخرج منه يضيق به الطريق .

قلت : السرعة إلى قومك .

هند تأخذ بشاربه !

حتى إذا جاءهم ، صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد ، قد جاءكم فيما لاقبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه . . .

فقالت : اقتلوا الحميت[1] الدسم الأحمس ، قبح من طليعة[2] قوم ! ! .

قال : ويلكم لاتغرنكم هذه من أنفسكم ! . فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به . . . فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ؟ ! .

قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . ومن دخل المسجد فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم ، وإلى المسجد الحرام .

التواضع لله

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي طَوًى ، وقف على راحلته متعمماً ، بنصف بردة حمراء ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح .

حتى إن عثنونَه[3] ليكاد يَمسُّ واسطة الرَّحْلِ ! .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يدخل مكة دخول الجبارين المتكبرين ، وإنما دخلها دخول الهداة المتواضعين .

عن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً .

---

(١) الحميت : زق السمن ، والدسم : الكثير الودك ، والأحمس : الشديد اللحم — تريد تشبيهه به لضخامته وسمنه .

(٢) طليعة القوم . الذي يتقدمهم ، أو يحرسهم .   (٣) ذقنه .

ترتيب الجيش

وقالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين فرّق جيشه من ذى طوى.
أمر الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كُدًى ، وكان الزبير على المُجَنِّبَة اليسرى .

وأمر سعد بن عُبادة أن يدخل فى بعض الناس من كداء .

وقالوا إن سعدا ـ حين وجه داخلا ـ قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فسمعها رجل من المهاجرين فقال : يارسول الله ، اسمعْ ماقال سعد بن عبادة ، مانأمن أن تكون له فى قريش صَوْلة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : « أدرِكْهُ فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخُل بها » .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فدخل من أسفل مكة فى بعض الناس.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ، يَنْصَبُّ لمكة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذاخر ، حتى نزل بأعلى مكة وضربَتْ له هناك قبّتُه .

وناوش نفر قليل من المشركين ، وناوشهم خالد بن الوليد .

وأصيب من المشركين ناسٌ قريبٌ من اثنى عشر رجلا ، ثم انهزموا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين ، حين أمرهم أن يدخلوا مكة ، ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم . إلا أنه قد عهد فى نفر سماهم ، أمر بقتلهم وإن وُجدُوا تحت أستار الكعبة .

خطبته يوم فتح مكة

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، واطمأن الناس ، خرج

حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع له الناس فى المسجد ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدّعى ، فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شِبْهِ العمد بالسَّوْط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

« يامعشر قريش ، وإن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية ، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم ، وآدم من تراب .

ثم تلا هذه الآية : « ياأيها الناسُ إنَّا خَلقنـاكم مِنْ ذكرٍ وأنثى » الآية كلها .

ثم قال : « يامعشر قريشٍ ، ماتَرَوْنَ أنِّى فاعلٌ فيكم ؟ » .

قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم .

قال : « اذهبوا ، فأنتم الطلقاء » .

هاك مفتاحك ياعثمان !

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد .

فقام إليه على بن أبى طالب ، ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين عثمان بن طلحة ؟ » .

فدعى له ، فقال : « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » .

كيف كان البيت ؟

رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم .

فرأى إبراهيم عليه السلام ، مُصوَّرا ، فى يده الأزلام ، يستقسم بها ! .

قال : قاتَلَهُم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ . ماشأنُ إبراهيم والأزلام ؟ . (ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) .

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست .

جاء الحق وزهق الباطل

وعن ابن مسعود قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » . (البخارى)

وفى رواية مسلم قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مكة، وعلى الكعبة ثلثمائة صنم فأخذ قضيبه ، فجعل يهوى إلى الصنم ، وهو يهوتى ، حتى مر عليها كلها .

وهكذا طهر رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت من تلك النجاسات ، وتلك الخرافات التى جعلتها قريش وغيرها ببيت الله الحرام .

إن الله حرم مكة

فلما كان من الغد يوم الفتح ، اعتدت خُزاعةُ على رجل من هُذيْل ، فقتلوه وهو مشرك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إن الله حرَّمَ مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرامٌ من حرامٍ إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يعضد[1] فيها شجراً ، لم تُحَلَلْ لأحد كان قبلى ، ولاتحلُّ لأحدٍ يكون بعدى ، ولم تحلَلْ لى إلا هذه الساعة ، غضباً على أهلها ، ألا ثُمَّ قد رجعت كحُرْمتها بالأمس ،

---

(١) يعضد : يقطع .

فليبلِّغ الشاهِدُ منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل فيها ، فقولوا إن الله قد أحلَّها لرسوله ، ولم يُحِلِّها لكم ، يامعشرَ خزاعةَ ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل ... » .

ماذا قلتم ؟

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم — حين افتتح مكة ودخلها — قام على الصفا يدعو الله ، وقد أحدقت به الأنصار .

فقالوا فيما بينهم : أترون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله عليه أرضه وبلده ، يقيم بها ؟

فلما فرغ من دعائه قال : « ماذا قلتم ؟ » .

قالوا : لاشيء يارسول الله .

فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

سرايا تدعو إلى الله

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حول مكة السرايا ، تدعو إلى الله عز وجل ، ولم يأمرهم بقتال .

وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ، ولم يبعثه مقاتلا .

فوطىء بنى جذيمة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا .

ووضع الناس السلاح لقول خالد .

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكُتِفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم !

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

اللهم إني أبرأ إليك

ثم انفلت رجل من القوم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فقال : « ياعلي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » .

فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاهم التعويضات عما أصابهم فوق مايطلبون ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر ، فقال : « أصبت وأحسنت » .

ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبل القبلة ، قائما ، شاهراً يديه حتى إنه ليرى ماتحت منكبيه ، يقول : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد » . ثلاث مرات .

خالد يهدم العزى

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى العُزّى .

وكانت بيتا يعظمه قريش وكنانة ومضر كلها .

فلما انتهى إليها خالد هدمها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انتهاء المعركة

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة .

كان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

غزوۂ حُنین

نحن فى السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة ...

لما سمعت هوازن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نصر ، وجُشم كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال وهم قليل .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه ، الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة .

فكانوا اثنى عشر ألفا ...

واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتَّاب بن أسيد على مكة أميرا ، ثم مضى على وجهه ، يريد لقاء هوازن .

الهزيمة !

عن جابر بن عبد الله : لما استقبلنا وادى حنين ، انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجْوَف ، إنما ننحدر فيه انحداراً ، وكان فى ظلام الصبح قبل أن يتبين ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه[1] وجوانبه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا .

فوالله ماراعنا ونحن مُنحطُّون إلا الكتائب قدشدُّوا علينا شدَّة رجل واحد . وانفض الناس ، وانهزموا راجعين ، لايلوى أحد على أحد .

أنا رسول الله

وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : « أين أيها الناس ، هلموا إلىّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » .

---

(١) الشعاب : الطرق الخفية .

قال جابر : فلا شيء ! . حملت الإبل بعضها على بعض فانطلق الناس .

إلا أنه قد بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نفـــر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

شماتة أهل مكة

فلما انهزم النـاس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من العداوة .

قال أبو سفيان بن حرب : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر .

وصرخ جَبلةُ بن الحنبل : ألا بَطَـل السحر اليوم !

أين أيها الناس ؟

عن العباس بن عبد المطلب : . . . كنت امرءاً جسيما . شـديد الصوت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـ حين رأى مارأى من النـاس : « أين أيها الناس ؟ » . فلم أر النـاس يلوُون على شيء ، فقال : « ياعبـاسُ ، اصرخ يامعشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السَّمُرة » ، فأجابوا لبيّك لبيّك . فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ دِرْعهُ فيَقذِفُهـا في عنقه ، ويأخـذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلي سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الآن حمي الوطيس

حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا .

فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركائبه ، فنظر مجتلد[1] القوم وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حمي الوطيس[2] » .

---

(١) مجتلد القوم : موقع الحرب . (٢) حمي الوطيس : حميت الحرب .

وتقاتل الناس ، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم ، حتى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهزم الله المشركين من أهل حنين ، وأمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة .

وأنزل الله عز وجل فى يوم حنين (لقد نَصَرَكُمُ الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) إلى قوله (وذلك جزاء الكافرين) ...

ثم جمعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حنين وأموالها .

حصار الطائف

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف حين فرغ من حنين .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل قريباً من الطائف فضرب به معسكره .

فقُتل ناسٌ من أصحابه بالنَّبْل ، وذلك أن الجنود اقتربوا من حائط الطائف ، فكانت النبل تنالهم .

ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوه دونهم .

فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل ، وضع معسكره عند مسجده الذى بالطائف اليوم ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة .

رسول الله أول من رمى بالمنجنيق

ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنجنيق ، فكان صلى الله عليه وسلم أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق ، رمى أهل الطائف .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن يؤذن بالرحيل ، فاذن عمر بالرحيل .

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطائف بعد قتال وحصار .

أبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف عن الطائف ، حتى نزل الجعرانة ، فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سبي كثير .

وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سَبْيٍ هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء مالا يدرى ما عدته .

وأتى وفد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبناؤكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أحب إليكم أم أموالكم » ؟ .

فقالوا : يا رسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا ؟ ! بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا .

فقال لهم: « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب ، فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم » .

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

إسلام مالك بن عوف

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد هوازن ، وسألهم عن مالك بن عوف ، ما فعل ؟ . فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبروا مالكا إنه إن أتانى مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » .

فأتى مالك بذلك ، فخرج إليه من الطائف ليلا ، فجلس على فرسه ، فركضه ... فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركه بالجِعرانة ، فرد عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل .

وأسلم فحسن إسلامه ! ! .

وكان ذلك من جميل سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم للنفوس .

وقال حين أسلم :

مَا إنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فى النَّاسِ كُلِّهِم بِمِثْلِ مُحَمَّدِ

فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، حتى ضيق عليهم .

توزيع فىء هوازن

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب ، وأتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فَيْئَنا من الإبل والغنم ، حتى ألجأوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه ، فقال : « ردوا ورا علىّ ردائى أيها الناس فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تِهامة نَعَماً لقسمته عليكم ، ثم ماألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذوباً » .

ثم قام إلى جنب بعيره ، فأخذ وبرة من سنامه بين أصبعيه ثم رفعها ، ثم قال : « أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الُخمسُ . والُخمُسُ مَرْدُودٌ عليكم ... » .

المؤلفة قلوبهم

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلَّفَة قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف قريش ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حَكم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحرث بن الحرث بن كَلَدَة مائة بعير ...

وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى فى قريش وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً ! .

اللهم ارحم الأنصار

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأعطى من تلك العطايا فى قريش ، وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالة(١) ، حتى قال قائلهم : لقى — والله — رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم . لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسَّمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب . ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء ! .

قال : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » .

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ؟ .

قال : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة(٢) » .

فخرج سعد ؛ فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة .

فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم .

(١) القالة : الكلام الردىء . (٢) الحظيرة : مكان يتخذ للابل والغنم .

فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يامعشر الأنصار ، ماقالة[1] بلغتنى عنكم ؟ وجِدَةٌ[2] وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟. ألم آتكم ضُلاَّلا فهداكم الله ، وعالة[3] فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » .

قالوا : بلى ، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل .

ثم قال : « ألا تجيبوننى يامعشر الأنصار ؟ » .

قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ . لله ورسوله المن والفضل .

قال صلى الله عليه وسلم : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم ، أتيتَنا مكَذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك[4] . أوجدتم يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة[5] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ . ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً ، وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى بلوا لحاهم بالدموع ، وقالوا : رضينا برسول الله قسْماً وحظاً .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرقوا .

---

(١) القالة : الكلام الردىء .

(٢) جدة : وموجدة وهى العتاب .

(٣) عالة : فقراء .

(٤) فآسيناك : أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا .

(٥) لعاعة : بقلة خضراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

العودة إلى المدينة

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجِعْرانة معتمراً ، يريد زيارة البيت ، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمرّ الظهْران .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمرته ، انصرف راجعاً إلى المدينة .

واستخلف عتّاب بن أسيد على مكة ، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين ، ويعلمهم القرآن ، واتُّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقايا الفىء .

وكانت عمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة ، فقدم المدينة فى بقية ذى القعدة .

غزوة تبوك

نحن فى السنة التاسعة من الهجرة .

ها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب، ثم يأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم .

وذلك فى زمن عُسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاء ؛ وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الخروج على الحال ، من الزمان الذى هم عليه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلما يخرج فى غزوة إلا كَنَى بها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصده ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد المسير ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يتجه إليه ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالتعبئة ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جَدَّ فى سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى ، واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها .

اللهم ارض عن عثمان

أنفَق عثمان بن عفان فى جيش العُسْرة ، فى غزوة تبوك ، ألف دينار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ارْضَ عن عثمان ، فإنى عَنْهُ رَاضٍ » .

لا أجد ما أحملكم عليه

ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكانوا أهل حاجة، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينُهُم تفيض من الدمع حزَنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وجاءه المعذِّرُونَ من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى.

تخلف بعض المسلمين

ثم استَتَبَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم سفره وأجْمَعَ السيْرَ.

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تخلفوا عنه، عن غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومُوارة بن ربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم.

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ضرب معسكره على ثَنِيَّةِ الوداع.

فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبيّ، فيمن تخلف من المنافقين، وأهل الريب.

لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجر، فلما مر به غطى وجهه بثوبه، واستعجل راحلته، ثم قال «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم، شكَوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

وقال نفر من المؤمنين لرجل معروف نفاقه كان يسير معهم: ويحك!! هل بعد هذا شيء؟.

قال: سحابةٌ مارةٌ!

رحم الله أبا ذر

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً ، فجعل يتخلفُ عنه الرجل ، فيقولون : يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : « دعوه ، فإن يك منه خير فسيُلْحِقهُ الله تعالى بكم ، وإنْ يَكُ غيرَ ذلِكَ فقدْ أراحَكمُ الله منه » .

حتى قيل : يارسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » .

وتلوّم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن أباذر » .

فلما تأمله القوم قالوا : يارسول الله ، هو والله أبو ذر ! !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموتُ وحدهُ . ويُبْعثُ وحدهُ » .

أمان لأهل أيلة

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، أتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الجزية . وأتاه أهل جرْباء ، وأذرُحٍ فأعطَوْه الجزية .

فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتاباً ، فهو عندهم ، فكتب ليوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبى رسول الله ليُحَنَّةَ بن رُؤْبَةٍ ، وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله

وذمة محمد النبي . ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لايحول ماله دون نفسه . وإنه طيِّبٌ لمن أخذه من الناس ، وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولاطريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

إنك ستجده يصيد البقر !

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أُكَيْدِرِ دُومَةَ ، وهو أكيدر بن عبد الملك ، كان ملكا عليها ، وكان نصرانياً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد : « إنك ستجده يصيد البقر » .

فخرج خالد ، حتى إذا كان من حصنِه بمنظر العين ، وفى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته .

فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ .

قال : لا والله .

قالت : فمن يترك هذه ؟ .

قال : لا أحد .

فنزل فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسَّان .

فركب وخرجوا معه بمطَارِدِهم .

فلما خرجوا تلَقَّتْهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته ، وقتلوا أخاه .

وقد كان عليه قَباءٌ من ديباج مخوَّصٌ بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل قدومه به عليه .

ثم إن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ، فرجع إلى قريته .

مسجد الضرار

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذى أَوَان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار .

وكان أصحاب مسجد الضرار ، قد كانوا أتوه ، وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً ، لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

فقال : « إنى على جناح سَفر وحال شُغْل .. ولو قد قَدِمْنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه » .

فلما نزل بذى أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخْشم ومَعْنَ بن عدى ، فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُهُ فاهْدِمَاهُ وحرِّقاه » .

فخرجا سريعين ، فحرّقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه .

ونزل فيهم من القرآن ما نزل : (والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين) إلى آخر القصة .

الثلاثة الذين خلفوا

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينـــة ، وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين .

وتخلف أولئك الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لا تُـكَلِّمُنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة » .

وأتاه من تخلف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ، ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعذرهم الله ولا رسوله .

واعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة .

كعب بن مالك يروى قصته

عن كعب بن مالك قال : ماتخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة غزاها قط ، غير أنى كنت قد تخلفت عنه فى غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها .

وكان من خبرى — حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك — أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة . . .

وغزا رسـول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار ، وأُحبّت الظلال .

فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت .

فلم يزل ذلك يتمادى بى ، حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسـلم غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحق بهم .

فغدوت بعد أن خرجوا لأتجهز . فرجعت ولم أقض شيئاً .

ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وسبقنى الغزو .

فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مطعوناً عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

ولم يذكرنى رســـول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « مافعل كعب بن مالك » ؟ .

فقال رجل : يارسول الله ، حبسه بُرْداه والنظر فى عطفَيْه .

فقال معاذ بن جبل : بئس ماقلت !. والله يارسول الله ماعلمنا منه إلا خيراً .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى حزنى ، فجعلت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطة رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم غداً ؟ . وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسَلم قد أشرف قادماً ، ذهب عنى الباطل ، وعرفت أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه .

وصبَّح رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس .

فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المُغْضَب ، ثم قال : « تعالَهْ » .

فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ماخلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرَك » ؟ .

قلت : إنى يارسول الله ؛ والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضَيَنَّ عنى ، وليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً ، تجد على فيه ، إنى لأرجو عقباى من الله فيه . . . ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمت ، وثار معى رجال من بنى سَلَمة ، فاتبعونى . . .

ثم قلت لهم : هل لقى هذا أحد غيرى ؟ .

قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ماقيل لك .

قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة ، فقمت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى نفسى ، والأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة …

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة : فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال ذلك على ، من جفوة المسلمين ، مشيتُ حتى تسورت جدار بستان أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمتُ عليه ، فوالله ماردَّ على السلام ! .

فقلت : ياأبا قتادة ، أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ .

فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ! .

ففاضت عيناى ، ووثبت فتسوّرت البستان . . فأقمنا على ذلك ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك .

قلت : أطلقها أم ماذا ؟

قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبىّ بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ماهو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ، ضائع لاخادم له ، أفتكره أن أخدمه .

قال : « لا ولكن لايقربنّكَ » .

قالت : والله يارسول الله مابه من حركة إلىّ ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ .

قلت : والله لاأستأذنه فيها ، ما أدرى مايقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى فى ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ؟ .

فلبثنا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا .

ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحُبت وضاقت علىّ نفسى . . .

إذ سمعت صوت صارخ يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشِرْ .

فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج .

وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا .

وذهب نحو صاحبيّ يبشرون ، وركض رجل إليّ فرسا ، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت ثوبيّ فكسوتهما إياه بشارة ، ووالله ماأملك يومئذ غيرهما .

واستعرت ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمّمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتلقاني الناس يبصرونني بالتوبة ، حتى دخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس .

فقام إليّ طلحة بن عبيد الله فحيّاني وهنّأني ، ووالله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره .

فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي ووجهه يبرق من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

قلت : أمن عندك يارسول الله ، أم من عند الله ؟ .

قال : « بل من عند الله » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأنّ وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله ، إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسِك عَليكَ بعضَ مالك فهو خير لك » .

قالت : إنى ممسك سهمى الذى بخيبر .

وقلت : يارسول الله ، إن الله قد نجانى بالصدق ، وإن من توبتى إلى الله أن لاأحدث إلا صدقاً ماحييت ... والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى ، والله ماتعمدت من كِذْبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى .

قال : وأنزل الله تعالى : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرة من بعد ما كاد يزيغُ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا) إلى قوله (وكونوا مع الصادقين) .

قال كعب : فوالله ماأنعم الله على نعمة قط – بعد أن هدانى للإسلام – كانت أعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ...

ثقيف تدخل الإسلام!

ائتمرت ثقيف بينها ، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدا من ستة رجال .

فلما دنوا من المدينة ، دخل أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بقدومهم عليه .

ولما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى كتب كتابهم بيده .

وقد كان فيما سألوه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لايهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمُغيرة بن شُعبة فيهدماها .

وقد كانوا سألوه ـ مع ترك الطاغية ـ أن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لاخير في دين لاصلاة فيه » .

فقالوا : يامحمد ، فسنؤتيكها ، وإن كانت دناءة !..

فلما أسلموا ، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابهم . أمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن .

تدمير الطاغية اللات !

فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم أباسفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية .

فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف ، أراد المغيرة أن يُقدِّم أباسفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبوسفيان بماله بذى الهدم .

فلما دخل المغيرة علاها يضربها بالمِعْول ، وخرج نساء ثقيف مكشوفات الوجوه ، يبكين عليها ! .

ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس : واهاً لكِ ، آهاً لكِ !

وكان إسلام ثقيف وهدم اللات في رمضان سنة تسع من الهجرة .

أبو بكر يحج بالناس

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة .

ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم .

فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .

ونزلت سورة براءة في نقض مابين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم . أن لا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام . وكان ذلك عهداً عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مُسَمَّاة .

فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك ، وفي قول من قال منهم .

فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير مايُظهرون ، منهم من سمى لنا ، ومنهم من لم يسم لنا .

ولما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه ليقيم للناس الحج ، قيل له : يارسول الله ، لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ .

فقال : « لا يؤَدّى عنى إلا رجلٌ من أهل بيتى » .

ثم دعا عليا بن أبى طالب ، فقال له : « اخرجْ بهذه القصّةِ من صدْر براءة وأذِّنْ في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافرٌ ، ولا يحجُّ بعد العام مشركٌ ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق .

فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أمير أو مأمور ؟ .

فقال : بل مأمور .

ثم مضيا . . فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية .

حتى إذا كان يوم النحر ، قام على بن أبى طالب ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخـل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أُذّن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ثم لا عهدَ لمشرك ولا ذمة ، إلا أحداً كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدة فهو له إلى مدته .

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عام الوفود

إنما كانت العرب تَرَبَّص بالإسلام ، أمر قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك .

وكانت قريش هي التي نَصَبَتْ لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوّخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله ، - كما قال عز وجل - أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

أي فاحمد الله على ما أظهر من دينك .

وفد بني تميم

فقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود العرب ، فقدم عليه أشراف بني تميم .

فلما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حُجراته : اخرج إلينا يا محمد .

فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، فخرج إليهم .

فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : « قد أذِنْتُ لخطيبكم فليقُل » .

فلما فرغ القوم من تفاخرهم ، وفرغ حسان بن ثابت من رده عليهم ، أسلموا ، وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن جوائزهم .

وفيهم نزل من القرآن : (إن الذين يُنَادونَكَ من وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أكثرُهم لا يعقلون) .

يا ابن عبد المطلب !.

وبعث بنو سعد بن بكر ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا منهم يقال له ضِمام بن ثعلبة .

فقدم عليه ، وأناخ بعيره على باب المسجد ، ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه .

وكان ضِمامٌ رجلا قوياً ، أشعر ، ذا ضفيرتين .

فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن عبد المطلب » .

قال : أمحمد ؟ .

قال : « نعم » .

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلِظٌ عليك فى المسألة ، فلا تجدَنَّ بها علىَّ فى نفسك .

قال : « لا أجد فى نفسى ، فسلْ عما بدا لكَ » .

قال : أنشدكَ الله إلهكَ ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولا ؟ .

قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ .

قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك آلله أمرك أن نصلي هذه الصلاة الخمس ؟ .

قال : « اللهم نعم » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة ، والصيام ، والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما نشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب مانهيتني عنه ، ثم لاأزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعاً . .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن صدق ذو العقيصتين[1] دخل الجنة » .

فأتى بعيره ، فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال : بِئْسَتِ اللاتِ والعُزَّى ! ! .

قالوا : مَهْ ياضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون .

قال : ويلكم ! إنهما والله لايضرّان ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً ! .

قدوم الجارود

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس وكان نصرانياً .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، ودعاه إليه ، ورغبه فيه .

---

(١) الضفيرتين .

فقال : يا محمد ، إنى قد كنت على دين ، وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟ .

فقال : « نعم أنا ضامن لكَ أن قدْ هَدَاكَ الله إلى ماهُوَ خيرٌ منه » .

فأسلم وأسلم أصحابه ، وخرج من عنده راجعاً إلى قومه ، وكان حسن الإسلام ، صُلباً على دينه حتى هلك .

مسيلمة الكذاب

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بنى حنيفة ، فيهم مسيلمة الكذاب .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله ، وتنبأ ، وتكذب لهم ، وقال : إنى قد أشركْتُ فى الأمر معه !

ثم جعل يَسْجَعُ لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : لقد أنعم الله على الحُبْلى ، أخرج منها نسمة تسعى ! ! .

وأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة ! ! .

وفد طيىء

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد طيىء ، فيهم زيدُ الخيل ، وهو سيدهم .

فلما انتهوا إليه كلمهم ، وعرض عليهم الإسلام ، فأسلموا فحسن إسلامهم .

ثم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زَيْدَ الخير .

فخرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى قومه ، فأصابته الحمى بالطريق فمات .

والله ماهذا بملك !

قال عدىّ بن حاتم : مامن رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم — حين سمع به — منى ، أما أنا فكنت امرأ شريفاً ، وكنت نصرانياً ، فكنت فى نفسى على دين ، وكنتُ ملكا فى قومى .

فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهتهُ ، فقلت لغلام كان لى عربى ، وكان راعياً لإبلى : أعدِدْ لى من إبلى أجمالا سماناً فاحتبسْها قريباً منى فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذِنّى ، ففعل .

ثم إنه أتانى ذات غداةٍ فقال : ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت راياتٍ ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد .

فقلت : فَقَرِّبْ إلىَّ أجمالى ، فقربها ، فاحتملت بأهلى وولدى ثم قلت : ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام .

وخلفت بنتاً لحاتم فى الحاضر ، فلما قدمت الشام أقمت بها .

وتخالفنى خيلٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبايا من طىء .

ثم أطلق سراحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدمت الشام فأقامت عندى .

فقلت لها وكانت امرأة حازمة : ماذا تَرَيْنَ فى أمر هذا الرجل ؟ .

قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذِلَّ فى عز اليمن وأنت أنت .

قلت : وَالله إن هذا للرأى .

فخرجت حتى أقدَمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمتُ عليه ، فقال : « مَنِ الرَّجُلُ » ؟

فقلت : عدىّ بن حاتم .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانطلق بى إلى بيته .

فوالله إنه لعامدٌ بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلا ، تكلمه فى حاجتها .

قلت فى نفسى : والله ما هذا بملك ؟

ثم مضى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة محشُوةً ليفا ، فقذفها إلىّ ، فقال : « اجلس على هذه » .

قلت : بل أنت فاجلس عليها .

فقال : « بلْ أنتَ » .

فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض ! .

قلت فى نفسى : والله ماهذا بأمر ملك ؟ .

ثم قال : « إيهِ ياعدِىّ بنَ حاتم ، ألم تك رَكُوسِيًّا[1] ؟ .

قلت : بلى .

قال : « أوَلمْ تكن تسير فى قومِكَ بالمِرْباع[2] ؟ .

قلت : بلى .

قال : « فإن ذلك لم يكن يحلُ لك فى دينك » .

قلت : أجل والله .

وعرفت أنه نبى مرسل يعلم مايُجْهَل .

ثم قال : « لعلك ياعدىّ إنما يمنعك من دخولٍ فى هذا الدين ماترى من حاجتهم ؟ . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لايوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ؟ . فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لاتخاف . ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ؟ وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » .

فأسلمت . . .

---

(١) قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

(٢) المرباع : ربع الغنيمة .

وكان عديّ يقول : قد مضت اثنتان ، وبقيت الثالثة ، ووالله لتكوننّ : قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكون الثالثة : ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه .

عمرو بن معد يكرب

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن معد يكرب فى أناسٍ من بنى زُبَيْد ، فأسلم .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد ! .

ما بال هذا الحرير ؟!

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشعث بن قيس فى وفد كِنْدَةَ ، فى ثمانين راكباً ، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده وقد مشطوا شعورهم وسرحوها ، وتكحلوا ، عليهم جُبَب ، وقد طرزوها بالحرير ! .

فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « أَلَمْ تُسْلِموا » ؟

قالوا : بلى .

قال : « فما بال هذا الحرير فى أعناقكم » ؟ .

فشقوه منها ، فألقوه .

ملوك حمير تبعث رسلها

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب ملوك حمير ، مَقْدَمَه من تبوك ، وَرسولهم إليه بإسلامهم .

فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً كان منه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبى ، إلى . . . أما بعد ، فإنه قد وقع

بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة ، فبلّغ ما أرسلتم به ، وخبّر ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم ، وقتلكم المشركين . . . وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَدُّ عنها ، وعليه الجزْيةَ . . . فمن أدى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن له ذِمّة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله . . . وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم ، وآمركم بهم خيراً ، فإنهم منظورٌ إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم معاذ بن جبل ، أوصاه ، وعهد إليه ، ثم قال له : « يسِّر ولا تُعسِّر ، وبشِّرْ ولا تنفر ، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاحُ الجنة ؟ . فقل : شهادة أن لا إلهَ إلا الله وحده لاشريكَ له » .

فخرج معاذ حتى إذا قدم اليمن ، قام بما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الروم يصلبون فروة ! .

وبعث فرْوَةُ بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا بإسلامه ، وأهدى له بغلةً بيضاء .

وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله مُعان ، وما حولها من أرض الشام .

فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه ، طلبوه حتى أخذوه ، فحبسوه عندهم .
ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ماء لهم بفلسطين ! ! .

إسلام بنى الحرث بن كعب

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع

الآخر ، سنة عشر من الهجرة ، إلى بنى الحرث بن كعب بنَجْران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، ثلاثاً ، فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج خالد حتى قام عليهم ، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس أسلِموا تسلموا .

فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه .

فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كان أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هم أسلموا ، ولم يقاتلوا .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بما جرى ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بشرهم وأنذرهم ، وأقبِلْ وليقبل معك وفدُهم .

فأقبل خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل معه وفد بنى الحرث .

فاستقبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمّر عليهم قَيْس ابن الحُصَيْن .

فرجع وفد بنى الحرث إلى قومهم فى بقية من شوال .

الرسول يبعث أمراء الزكاة

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أمراءه وعمّاله على الصدقات ، إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان .

كتاب مسيلمة الكذاب !

وقد كان مسيلِمة بن حبيب قد كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فإني قد اشركت في الأمر معك ، ، إن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكنّ قريشاً قومٌ يعتدون ! .

فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ كتابه : « فما تقولان انتما » ؟

قالا : نقول كما قال !

فقال : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .

ثم كتب إلى مسيلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وكان ذلك في آخر سنة عشر من الهجرة .

حَجَّةُ الوَدَاع

حجة الوداع ، أو حجة الإسلام ، أو حجة البلاغ .

وإنما سميت حجة الوداع لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها .

وسميت حجة الإسلام لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحج من المدينة غيرها .

وسميت حجة البلاغ لأنه عليه السلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولا وفعلا ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه السلام ، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه ، أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا) .

متى خرج النبي ؟

فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو القعدة من سنة عشر من الهجرة ، تجهَّزَ للحج ، وأمر الناس بالجَهاز له .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لخمس ليال بقين من ذي القعدة ، فقدم مكةَ لخمس خلون من ذي الحجة .

واستعمل على المدينة أبا دُجانة السَّاعِدِيّ .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه الظهر بالمدينة أربعا ، والعصر بذي الحليفة ركعتين ، ثم بات بها حتى أصبح ، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء ، وحمد الله عز وجل وسبح ، ثم أهل بحج وعمرة .

كيف كانت تلك الحجة ؟

وإليك تفصيل الحجة الأخيرة الجامعة ، التي اختتم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، وأعلن الله تعالى فيها إكمال الدين ، وإتمام النعمة

عن جابر بن عبدالله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجٌ فقدم المدينة بَشر كثيرٌ ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه ، حتى أتينا ذا الْحُلَيْفة ، فولدت أسماء بنت عُمَيْسٍ محمدا بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيفَ أصنَعُ ؟ . قال : « اغتسلى واستَثفِرى[1] بثوبٍ وأحْرِمى » .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، ثم ركب القصواء ، حتى إذا استوت به ناقتهُ على البيداء ، نظرْتُ إلى مدِّ بصرى ، بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفهِ مثل ذلك !

ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظْهُرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شىء ، عملنا به .

فأهلَّ بالتوحيد : لَبَّيْكَ اللهمَّ لبيك ، لبيك لا شريكَ لكَ لبيكَ ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعمةَ لك ، والْمُلكَ ، لا شريكَ لكَ » .

وأهَلَّ النـاس ، بهذا الذى يهلون به ، فلم يرُدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم شيئاً منه ، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبيتهُ .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحجَّ ، لسنا نعرف العُمْـرَةَ ، حتى إذا أتينا البيت مَعَهُ ، استلم الرُّكنَ فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعا ، ثم نفذَ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ (واتخذوا مِنْ مقام إبراهيم مُصلًى) فجعل المقام بينه وبين البيتِ ـ كان يقرأ فى الركعتين قل هو الله أحدٌ وقلْ يا أيها الكافرون .

ثم رجع إلى الركن فاستلمهُ ، ثم خرج من البابِ إلى الصفا .

---

(١) استثفرى : شدى فى وسطك شيئاً ، وخذى خرقة عريضة اجعليها على محل الدم ، وشدى طرفيها من قدامها ومن ورائها فى ذلك المشدود فى وسطك .

فلما دنا من الصفا قرأ (إِنَّ الصَّفَا ، والمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ اللهِ) أبدأ بما بَدَأَ اللهُ به .

فبدأ بالصفا ، فرَقِيَ عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلةَ ، فوحَّدَ اللهَ وكبَّرَهُ .

وقال : « لا إله إلا اللهُ ، وحدهُ لاشريكَ لهُ ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كل شيء قدير ، لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه ، أنجزَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ وهزَمَ الأحزابَ وحدَهُ » .

ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاثَ مرّاتٍ .

ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبَّتْ قدماهُ في بطن الوادى سعى ، حتى إذا صعدَتا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروةِ كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخرُ طوافهِ على المروةِ فقال : «لو أنى استقبلتُ من أمرى مااستدبَرْتُ ، لم أسُقِ الهدْىَ ، وجعلتُها عمرَةً ، فمن كان منكم ليس معه هدْىٌ فليَحِلَّ ، وليجعلْها عمرةً » .

فقام سُراقةُ بنُ مالك بن جُعشُم فقال : يارسولَ الله ألِعامِنا هذا أم لأبَدٍ ؟.

فشبَّكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدةً فى الأخرى ، وقال: « دخلتِ العمرةُ فى الحَجِّ ـ مرتينِ ـ لا ، بلْ لأبدٍ أبدٍ » .

وَقَدم علىٌّ من اليمن ، ببُدْنِ النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجد فاطمةَ رضى الله عنها ممنْ حلَّ ولبست ثياباً صبيغاً ، واكتحلتْ ، فأنكر ذلك عليها .

فقالت : إنَّ أبى أمرَنى بهذا .

قال جابر : فكانَ علىٌّ يقول بالعراق ، فذهبْت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مُحَرِّشاً على فاطمة ، للذى صنعتْ ، مستفتياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرت عنه ، فأخبرْته أنى أنكرت ذلك عليها . فقال صَدَقَت صدقت ، ماذا قلتَ حين فرضْت الحَجَّ ؟ قال : قلت : اللهمَّ إنى أهلُّ بما

أهلَّ به رسولُكَ . قال : فإنَّ معِىَ لهدْىَ ، فلا تحِلُّ .

قال جابر : فكانَ جماعةُ الهدىالذى قدِم به علىٌّ من اليمن ، والذى أتى به النبى صلى الله عليه وسلم مائةً .

قال : فحلَّ الناسُ كلهم ، وقصَّروا ، إلاالنبىَّ صلىالله عليهوسلم ، ومن كان معه هدىٌ .

فلما كان يوم التَّرْوِيةِ ، توجهوا إلى مِنى ، فأهلوا بالحج .

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى بهـا الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقُبة من شَعَرٍ ، تُضرب له بنَمِرَةَ .

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاتَشُكُّ قريش إلا أنه واقفٌ عند المشْعرِ الحرامِ ، كما كانت قريش تصنعُ فى الجاهلية .

فأجازَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفةَ ، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرةَ ، فنزل بها .

حتى إذا زاغَتِ الشمسُ أمرَ بالقصواء ، فرُحلتْ له ، فأتى بطنَ الوَادى فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كلُّ شىء من أمر الجاهلية تحت قدمىَّ موضوعٌ ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضعُ من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارثِ ، كان مُسترضعا فى بنى سَعْدٍ ، فقتلته هُذيْلٌ . وربا الجاهلية موضوعٌ ، وأولُ ربا أضع ربانا ، ربا عباسِ بن عبدِ المطلب ، فإنه موضوعٌ كلُّه . فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لايُوطِئْن فرُشَكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبرِّحٍ ، ولهن عليكم

رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعدَهُ ، إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » .

قالوا : نشهدُ انك قد بلّغتَ وأدّيْتَ ونصحت .

فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : «اللهم اشهدْ» ثلاث مرات .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً.

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبلَ المشاةِ بين يديه ، واستقبل القبلة .

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا ، حتى غاب القرص .

وأردَفَ أسامَةَ خلفَهُ ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شنق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِه ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناسُ ، السكينةَ السكينةَ » .

كلما أتى حبلاً من الحبال[1] ، أرخى لها قليلا ، حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذانٍ واحد ، وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح ، بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعاه وكبره وهلله ووحده .

فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباسٍ ، وكان رجلا حسَنَ الشَّعْرِ ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّتْ به ظُعُنٌ[2] يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن ،

(١) جمع حبل : وهو التل من الرمل . (٢) ظعن . نساء .

فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ، فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظرُ .

حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ ، فحرّك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى ، التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، مثل حصى الخذْفِ .

رمى من بطن الوادى ، ثم انصرف إلى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بيده ثم أعطى عليا فنحر ماغبر[1] ، وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنه ببضعة ، فجعلت فى قدر فطبخت ، فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزِعُوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم ، لنزعت معكم .

فناولوه دَلواً ، فشرب منه . (رواه مسلم)

ذلك هو الحديث الرائع الذى يفصل حجة الوداع تفصيلا جميلا طويلا .

ولقد نقلناه إليك بكامله ، لينقلك بدوره إلى تلك الأيام الجميلة ، التى قضاها صلى الله عليه وسلم حاجاً ، ومعه أصحابه ، يقولون كما يقول ، ويفعلون كما يفعل .

فتتلألأ من ذلك أمامك صورة حية ناطقة متحركة ، تجرى أمام ناظريك عن عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره كله .

---

(١) مابقى .

اللهم اشهد

قالوا : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حجه ، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التي بين فيها مابين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، اسمعوا قولي ، فإني لاأدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تَظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله أنه لاربا .

وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع .

وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أولُ ماأبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يَعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادةٌ في الكفر ، يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ماحرم الله ، فيحلوا ماحرم الله ، ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مُبرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيّنا ، كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه .

تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ المسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت » .

فقال الناس : اللهم نعم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشهد » .

فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ، وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم مافرض الله عليهم من حجهم من الموقف ، ورَمْى الجمار ، وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم .

فكانت حجة البلاغ ، وحجة الوداع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها .

العودة إلى المدينة

ثم قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفرا .

---

(١) أسيرات .

بعث أسامة بن زيد إلى فلسطين

وضرب على الناس بعثاً إلى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء ، والداروم ، من أرض فلسطين .

فتجهز الناس ، وخرج مع أسامة بن زيد المهاجرون والأنصار .

وهو آخر بعث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الى الرفيق الأعلى

نحن فى سنة إحدى عشرة من الهجرة .

فبينا الناس على ذلك ، ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه ، الذى قبضه الله فيه ، فى ليال بقين من صفر .

فكان أول ما ابتدىء به من ذلك ، أنه خرج إلى بقيع الغَرْقد ، من جوف الليل ، فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله .

فلما أصبح ابْتُدِىء بوجعه من يومه ذلك .

لقد اخترت لقاء ربى

عن أبى مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل ، فقال : « يا أبا مويهبة ، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى » .

فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، لِيَهْنِئْ لكم ما أصبحتم فيه ، مما أصبح الناسُ فيه ، أقبلت الفتنُ كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرُها أولَها ، الآخِرَةُ شرٌّ من الأولى » .

ثم أقبل علىّ فقال : « يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة » .

فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة

قال : « لا ، والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة » .

ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف .

فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذى قبضه الله فيه .

وارأساه

عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع ، فوجدنى وأنا أجد صُداعاً فى رأسى ، وأنا

أقول : وارأساه ، فقال : « بل أنا والله يا عائشةُ وارأساه » .

قالت : ثم قال : « وما ضرك لو مُتِّ قبلى ، فقمتُ عليك وكفنتكِ وصليت عليك ودفنتك ؟ » .

قالت : قلت : والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى فأعْرَست فيه ببعض نسائك !

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتتامّ عليه مرضه وهو يدور على نسائه ، حتى اشتد به وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى ، فأذِنّ له .

المرض يشتد

عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله ، أحدهما الفضل بن عباس ، ورجل آخر [1] ، عاصباً رأسه ، تخط قدماه ، حتى دخل بيتى .

ثم غُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد به وجعه ، فقال : « هَريقُوا عَلَىَّ سبع قِربٍ من آبار شتى ، حتى أخرُجَ إلى الناس ، فأعْهَدَ إليهم » .

فأقعدناه فى مِخضَبٍ لحفصة بنت عمر ، ثم صببنا الماء حتى طفق يقول : « حَسْبُكم حسبكم » .

ينعى نفسه

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر . ثم كان أول ما تكلم به ، أنه صلى على أصحاب أُحُدٍ ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم .

---

(١) هو على بن أبى طالب .

ثم قال : « إن عبداً من عباد الله ، خيره الله بين الدنيا والآخرة ، وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » .

ففهمها أبو بكر ، وعرف أن نفسه يريد ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على رسلك يا أبا بكر » .

ثم قال : « انظروا هذه الأبواب اللافظة[1] فى المسجد فسدوها ، إلا بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحداً ، كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه » .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ فى كلامه هـذا « فإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلا ، لاتخذتُ أبا بكر خليلا ، ولكن صحبةٌ ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » .

أنفذوا بعث أسامة

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ الناس فى بعث أسامة ، وهو فى مرضـه .

فخرج عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر .

وقد كان الناس قالوا فى إمرة أسامة : أمّر غلاماً حدثاً ، على جلة المهاجرين والأنصار .

فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته ، لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليقٌ للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانكمش الناس فى جهازهم ، واشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه .

فخرج أسامة ، وخرج بجيشه معه ، حتى نزلوا الجُرْف من المدينة على فرسخ .

---

(١) اللافظة : النافذة إليه .

فضرب به معسكره ، وتتامّ إليه الناس .

وثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام أسامة والناس ، لينظروا ما الله قاض في رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استوصوا بالأنصار خيراً

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — يوم صلى واستغفر لأصحاب أحد ، وذكر من أمرهم ماذكر ، مع مقالته يومئذ — « يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لاتزيد ، وإنهم كانوا عَيْبتي التي أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » .

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل بيته ، وتتامّ به مرضه حتى غمره .

من صنع هذا بي ؟

فاجتمع إليه نساء من نسائه ، أم سلمة ، وميمونة ، ونساء من نساء المسلمين ، منهن أسماء بنت عُمَيْس .

وعنده العباس عمه ، فأجمعوا على أن يَلُدُّوه(١) ، وقال العباس : لألُدَّنَّهُ .

فلدُّوه ، فلما أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من صنع هذا بي»؟

قالوا : يارسول الله عمك .

قال : هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض » . وأشار نحو أرض الحبشة .

قال : « ولم فعلتم ذلك » ؟

فقال عمه العباس : خشينا يارسول الله أن يكون بك ذات جَنْب .

---

(١) لددت المريض : إذا جعلت الدواء في شق فمه .

فقال : « إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفني به ، لا يبقَ في البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمي » .

فلقد لدت ميمونة ، وإنها لصائمة ، لقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عقوبة لهم بما صنعوا به .

يدعو بالإشارة

عن أسامة بن زيد ، لما ثَقُل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هبطت ، وهبط الناس معي إلى المدينة .

فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أُصْمِت ، فلا تكلم . فجعل يرفع يده إلى السماء ، ثم يضعها عليّ ، فأعرف أنه يدعو لي .

إذا والله لا يختارنا !

عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كثيراً ما أسمعه يقول : « إن الله لم يقبض نبياً حتى يُخَيِّرَهُ » .

قالت : فلما حُضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيقَ الأعلى من الجنّة » .

قالت : قلت : إذا والله لا يختارنا ، وعرفت أنه الذى كان يقول لنا « إن نبياً لم يُقبضْ حتى يُخَيَّر » .

وعن عائشة أيضاً قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من نبي إلا تُقْبض نفسه ، ثم يرى الثواب ، ثم ترد إليه ، فيخير بين أن ترد إليه ، وبين أن يلحق » .

فكنت قد حفظت ذلك منه ، فإني لمسندته إلى صدرى ، فنظرت إليه حين مالت عنقه ، فقلت : قد قضى ، فعرفت الذى قال .

فنظرت إليه حين ارتفع فنظر ، قلت : إذا والله لا يختارنا .

فقال : مع الرفيق الأعلى ، فى الجنة ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

مروا أبا بكر فليصل بالناس

عن عائشة قالت : لما استعزّ برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مروا أبا بكر فليُصَلّ بالناس» .

قلت : يا نبي الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن ؟

قال : «مروه فليصل بالناس» .

قالت : فعدت بمثل قولى .

فقال : «إنكنّ صواحبُ يوسفَ ، فروه فليصل بالناس» .

قالت : فو الله ما أقول ذلك إلا أنى كنت أحب أن يُصْرَف ذلك عن أبى بكر .

وعرفت أن الناس لا يحبُّون رجلا قام مقامه أبداً ، وأن الناس سيتشاءمون به فى كل حدث كان ، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر .

فأين أبو بكر ؟

عن عبد الله بن زَمْعة قال : لما استعز برسول الله صلى الله عليه وسلم — وأنا عنده فى نفر من المسلمين — دعاه بلال إلى الصلاة .

فقال : «مروا من يصلى بالناس» .

فخرجت ، فإذا عمر فى الناس ، وكان أبو بكر غائباً .

فقلت : قم ياعمر فصل بالناس .

فقام : فلما كبر ، سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته وكان عمر رجلا مُجْهِراً(١) .

---

(١) مجهراً : عالى الصوت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فأين أبو بكر ؟ . يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون » .

فبعث إلى أبي بكر ، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة ، فصلى بالناس .

قال لي عمر : ويحك !! . ماذا صنعتَ بي يا ابن زمعة ؟ . والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك ؟ . ولولا ذلك ما صليت بالناس .

قلت : والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس .

النظرة الأخيرة

عن أنس بن مالك : لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح .

فرفع الستر ، وفتح الباب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على باب عائشة .

فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه ، فرحاً به ، وتفرَّجوا .

فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم .

وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سروراً لما رأى من هيئتهم في صلاتهم .

وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئةً منه تلك الساعة .

ثم رجع ، وانصرف الناس ، يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أفرقَ [1] ، من وجعه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنح [2] .

---

(١) أفرق من وجعه : أبل من مرضه وبرىء منه .

(٢) موضع كان لأبي بكر فيه مال ، وكان ينزله بأهله .

يصلي وراء أبي بكر !!

لما كان يوم الاثنين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عاصباً رأسه إلى الصبح ، وأبو بكر يصلي بالناس .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرج الناس ، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنكص عن مصلاه .

فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظهره ، وقال : « صَلِّ بالناس » .

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جَنبه ، فصلى قاعدا عن يمين أبي بكر .

فلما فرغ من الصلاة ، أقبل على الناس ، فكلمهم رافعاً صوته ، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول : « أيها الناس ، سُعِّرَتِ النارُ ، وأقبلتِ الفتن كقِطعِ الليل المظلم ، وإني والله ما تمسكون عليَّ بشيء ، إني لم أُحِلَّ إلا ما أحَلَّ القرآنُ ، ولم أُحَرِّمْ إلا ما حرم القرآنُ » .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه ، قال له أبو بكر : يا نبي الله ، إني أراك قد أصبحْتَ بنعمة من الله وفضل ، كما نُحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟ .

قال : « نعم» .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح .

بل الرفيق الأعلى

فَتوُفِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضُّحاء من يوم الإثنين ، لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، لتمام عشر سنين من مقدمه المدينة .

عن عائشة قالت : رجع إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم ،

حين دخل من المسجد ، فاضطجع فى حجرى .

فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر .

فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فى يده ، نظراً عرفت أنه يريده .

فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ .

قال : « نعم » .

قالت : فأخذته فمضغته حتى لَيَّنْتُه ، ثم أعطيته إياه .

فاستَنَّ به كأشد ما رأيته يستن بسواك قطُّ ، ثم وضعه .

ووجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بلِ الرفيقَ الأعلى من الجنة » .

فقلت : خُيِّرْتَ فاخترتَ ، والذى بعثك بالحق .

وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تقول عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرى(١) ونَحْرى(٢) وفى دولتى(٣) ، لم أظلم فيه أحداً . فمن سَفَهى وحداثة سنى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألْتَدِمُ(٤) مع النساء ، وأضربُ وجهى ! .

والله ما مات !!

عن أبى هريرة :

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى

---

(١) السحر : من الرئة إلى الحلقوم . (٢) النحر . أعلى الصدر .
(٣) فى دولتى : فى نوبتى التى كانت لى . (٤) ألتدم : أضرب صدرى .

ابن عمران ، فقد غاب عن قومه ، أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجعَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطَّعَنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات .

أبو بكر يقبل رسول الله

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد — حين بلغه الخبر — وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مغطى الوجه في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبَرَةٍ[1] .

فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أقبل عليه فقبَّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتةُ التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتةٌ أبدا .

ثم ردَّ البُرْد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج وعمر يكلم الناس .

وما محمد إلا رسول

فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت . . فأبى إلا أن يتكلم .

فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه ، وتركوا عمر .

فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية :

---

(١) نوع من ثياب اليمن .

(وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإنْ مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلبْ على عقبيه فلنْ يضرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي الله الشاكرين).

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ.

وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ[1] حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات.

عمر يروي قصة اختيار أبي بكر

قال عمر: إنه كان من خبرنا — حين توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم — أن الأنصار خالفونا، فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما.

واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار.

فانطلقنا نؤمُّهم .. حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة...

فلما جلسنا تَشَهَّدَ خطيبهم، فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله. وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دَفَّتْ[2] دَافَّةٌ من قومكم.

قال عمر: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر.

---

(١) فعقرت: تحيرت ودهشت.

(٢) الدافة: الجماعة تأتي من البادية إلى الحاضرة.

فلما سكت أردت أن أتكلم ، وقد زَوَّرْتُ[1] في نفسي مقالة قد أعجبتني ، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر . .

فقال أبو بكر : على رِسْلِكَ يا عمر ، فكرهت أن أغضبه .

فتكلم ، وهو كان أعلم مني وأوقر ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته ، أو مثلها ، أو أفضل ، حتى سكت ، قال : أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم .

وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا .

ولم أكره شيئاً مما قال غيرها كان والله أن أقدَّمَ فتضرب عنقي لا يقرِّبني ذلك إلى إثم ، أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر .

فقال قائل من الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير يا معشر قريش .

قال : فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، حتى تخوَّفت الاختلاف .

فقلت : ابسُط يَدَكَ يا أبابكر ، فبسط يده ، فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار . . .

عمر يعتذر

عن أنس بن مالك : لما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر .

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ، وما وجدتها في كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني قد كنت أرى أن رسول

---

(١) زورت : أعددت وحسنت .

الله صلى الله عليه وسلم سَيُـدَبِّرُ أمرنا . . . يكون آخرنا ! .

وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هَـدَى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له .

وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه .

فبايع النـاس أبا بـكر بيعته العامة ، بعد بيعة السقيفة .

لست بخيركم

ثم تكلم أبو بـكر ، فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ؛ فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحْسَنْتُ فأعينونى ، وإن أسأت فقَوِّمونى ، الصـدق أمانة ، والـكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله .

لا يَدَعُ قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل .

ولا تشيعُ الفاحشة فى قوم قطُّ إلا عَمَّهُمُ الله بالبلاء .

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .

قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

إعداد الجسد الشريف

فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه ، أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء .

فأسند على بن أبى طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقُثَم يقلبونه معه .

وكان أسامة بن زيد ، وشُقْران مولاه ، هما اللذان يصبان الماء .

وعليّ يغسله ، قد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يَدلكه من ورائه ، لا يُفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عليّ يقول : بأبي أنت وأمي ، ما أطيَبك حياً وميتاً .

ولم يرَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء مما يُرى من الميت .

فلما فرغ من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن فى ثلاثة أثواب .

صُحاريَّين[1] ، وبُردِ حِبَرَةٍ ، أدرج فيه إدراجاً .

الصلاة على رسول الله

فلما فرغ من جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء ، وُضع على سريره فى بيته .

وقد كان المسلمون اختلفوا فى دفنه ، فقال قائل : ندفنه فى مسجده .

وقال قائل : بل ندفنه مع أصحابه .

فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما قبض نبيٌّ إلا دُفِن حيثُ يُقبضُ » .

فرفع فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى توفى عليه ، فحفر له تحته .

ثم دخل الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلون عليه أرسالا

دخل الرجال ، حتى إذا فرغوا أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان .

ولم يؤُمَّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد .

---

(١) نسبة إلى صحار ، وهى بلدة من بلاد اليمن .

فى ليلة الأربعاء

عن عائشة قالت : ماعلمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحى من جوفِ الليل من ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على بن أبى طالب ، والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أوس بن خَوْلِىّ لعلى بن أبى طالب : ياعلى أنشدك بالله ، وحظّنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال له : انزل . فنزل مع القوم .

وقد كان مولاه شقران ـ حين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرته وبنى عليه ـ قد أخذ قطيفة ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : والله لايلبسها أحد بعدك أبداً .

قال ابن عباس : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة ، ثم أمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، ثم مات وهو ابن ثلاث وستين .

(تم)

خاتمة

.. ماإن فرغت من تأليف هذا الكتاب ، حتى وقع فى يدى عدد من إحدى المجلات الشهرية ، التى تصدر فى القاهرة ، ووجدت فيه مقالا ، كأنما كان معى على ميعاد .

قرأت فيه مقالاً بعنوان : « السيرة النبوية لابن هشام » ...

قال فى المقال :

« تتمثل حيوية الفكر الإسلامى ونشاطه فى تلك الثروة الضخمة من الكتب التى أخذ المؤلفون الإسلاميون يكتبونها منذ أن بدأت نهضتهم العقلية فى الازدهار فى القرن الثانى الهجرى ، والتى سايرت ركب الحضارة طوال العصور ، وخلدت آثار العبقرية الإسلامية فى الفقه والتشريع ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ والرحلات والفلسفة والطب ، وسائر فروع العلم التى عرفتها الإنسانية إلى اليوم .

وتمتاز المكتبة الإسلامية بميزة لم تتوفر لسواها من المكتبات : ذلك أنها تستمد إلهامها ونموذجها من كتاب سماوى خالد ، ضرب لها المثل فى البيان ، وفتح أمام أصحابها آفاق المعرفة ، ووجههم إلى الدرس والبحث ، فما هو إلا أن استقرت الأوضاع فى عالمهم الواسع الجديد حتى عكفوا على دراساتهم فى شغف وجد ، وحتى سلكوا سبل التخصص فى ميادينها ، ونظموا طرق جمع المعلومات فيها ، وأخذوا أنفسهم بشىء من النقد لما يجمعون ، فلم ينته القرن الثانى الهجرى حتى كانت نهضتهم التأليفية قد بدأت تؤتى ثمارها فى صورة كتب لا تزال - وستظل - عماد الباحثين فى الدراسات الإسلامية والعربية .

ومن الثمار الأولى لتلك النهضة كتاب « السيرة النبوية » الذى نعـالجه اليوم تيمناً بصاحب « السيرة » صلوات الله وسلامه عليه ، ومتابعة لتـاريخ الزمنى للمـكتبة الإسلامية ، واعتزازاً بكتاب إسلامى قديم شاركت «مصر» فى فضل تأليفه . فالـكتاب يمثل جهود عالمين من السـابقين فى تاريخ « المغـازى والسير » : أحـدهما ، محمـــد بن إسحاق المدنى الذى توفى فى منتصف القرن الثـانى للهجرة ، والثانى عبد الملك بن هشام المعافرى المصرى الذى توفى بمصر فى أوائل القرن الثالث ، فأما العالم الأول فقد جمع مادة السيرة من الأخبار والروايات التى كان يتناقلها مجتمع « المدينـة » ويحفظها رواتها ومحدثوها ، وأضاف إلى ذلك ما جمعه أثناء زيارته « للاسكندرية » وسماعه من أهل الحديث بها ، وأما العالم الثانى ـ وهو ابن هشام ـ فقد أعمل فيها يد التنظيم والتلخيص والنقد : فاقتصر من مادتها الواسعة على ما كان خاصاً بنسب الرسول صلى الله عليه وسـلم ، ثم ما كان منصباً على سـيرته وحيـاته وغزواته ، تاركاً بعض ماأورده ابن إسحاق مما ليس للرسول فيه ذكر . ولا نزل فيه من القرآن شىء ولادعت إليـه ضرورة التفسير والاستشهاد . مهملا بعض أشعـار رواها ابن إسحاق وشك هو فى صحة نسبتها إلى أصحابها ، مستقصياً بعض التفاصيل مما جمعه أثناء إقامته فى مصر .

وقد أبى أهل المغرب الإسلامى إلا أن يأخـذوا بنصيبهم من خـدمة سيرة الرسول ، فانتدب عالم ضرير من علمائهم ـ هو « عبد الرحمن السهيلى » الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ـ لكتابة شرح على سـيرة ابن هشام سمـاه « الروض الأنف » وجمـع مادته كما يقول من أكثر من مائة وعشرين مرجعاً .

فالـكتاب الذى بين أيدينا إذن يمثل محصول أربع مراحل فى التـاريخ

لسيرة الرسول صلوات الله عليه ، الأولى مرحلة السابقين الأولين من حفاظ السيرة ومدوني صحفها من أمثال « عروة بن الزبير » « وابن شهاب الزهري » والثانية : مرحلة الجمع الشامل لأخبار السيرة وكل مايتصل بها من تاريخ وقصص وأدب على يد « ابن إسحاق » ، والثالثة : مرحلة التنظيم والتلخيص على يد « ابن هشام » وتلك المراحل الثلاث تشهد بما كان لمفكري القرنين الأولين من الهجرة في المدينة ومكة والبصرة ومصر من عناية بسيرة رسولهم وبجمع مادتها وتمحيصها ووضعها في مكانها من حلقات التاريخ الإسلامي .

أما المرحلة الرابعة فهي مرحلة الشرح والتفسير التي ذهب بفضلها أهل المغرب الإسلامي . هذه الجهود المتتابعة أثمرت مرجعا هاماً في سيرة الرسول اعتمد عليه المؤرخون الإسلاميون خلال العصور ، كما اعتمد عليه كتابنا المحدثون من أمثال « طه حسين » و « العقاد » و « هيكل » و « الحكيم » في تاريخهم لحياة الرسول أو تحليلهم لعبقريته ، أو عرضهم لسيرته في قالب قصصي جديد . وقد أدرك الغربيون قيمة هذا الكتاب منذ القرن الماضي فترجموه إلى بعض لغاتهم كالألمانية ، وطبعوه مراراً وأضافوا إليه الفهارس والتعليقات ويقوم الآن مستشرق إنجليزي معروف بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية وقد أوشك على الانتهاء من مهمته .

ومنذ عشرين سنة مضت قام ثلاثة من الباحثين المصريين بإعادة طبع السيرة النبوية لابن هشام ، فحققوها وقابلوا بين نسخها المطبوعة والمخطوطة وضبطوها ووضعوا فهارسها ، وبذلك سهلوا على القارىء العربي الحديث دراستها والرجوع إليها .

الكتاب يبدأ كما قلنا بإيراد نسب الرسول منذ « إسماعيل » مبرزا صلة مصر بهذ النسب من طريق « هاجر » أم إسماعيل التي نشأت في « داتا مصر »

ومن طريق « مارية » التي تسراها الرسول فولدت له ابنه إبراهيم ، والمروى أنها نشأت في صعيد مصر ، ويذكر الكتاب بعض الأحـــداث والظواهر المشهورة في تاريخ الجاهلية كقصة سد مأرب ، واعتناق (تُبـع) ملك اليمن النصرانية ، وقصة أصحاب الفيل وغيرها مما وردت إلى الكثير منه اشارات في القرآن ، وهو يفصل في بعض هذه القصص تفصيلا أفاد منه من جاء بعده من المفسرين والمؤرخين : كالذى فصل في قصة « الفيل » إذ بدأها من غلبة أبرهة على اليمن ، وبنائه الكنيسة التي أراد أن يصرف إليها حج العرب ، وعزمه على هدم الكعبة بيتِ الله الحرام ، وما كان بينه وبين عبد المطلب من لقاء وحديث ، وما وقع لأبرهة حين هيأ فيله وعبأ جيشه ، وتهيأ لدخول مكة وما حدث للجيش المغير ، إذ أرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار دقاق يحملها ، لا يصيب منهم أحـــداً إلا هلك : فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا وراحوا يتساقطون هنا وهناك وأصيب « أبرهة » في جسده فأخذ ينتثر . ويذكر « ابن إسحاق » هنا أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان ذلك العام .

فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما عد الله على قريش من نعمته عليهم وفضـــله مارد عنهم من أمر الحبشة فأنزل في ذلك سورة الفيل ويستمر الكتاب فيفسر ألفاظ السورة .

ويروى ابن إسحاق في آخر هـــذه القصة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس ثم يورد نماذج مما قيل من الشعر في هذه الحوادث بعضه لأمية بن أبي الصلت وبعضه لشعراء إسلاميين كالفرزدق وابن قيس .

هذه التفاصيل لها أساسها التاريخى ، ومن الراجح أن القصص قد اختلط فيها بالتاريخ ، ولكنها على أية حال تفيد الباحث فى التفسير وفى الأدب وتعطى صورة من أحداث البيئة العربية فى المرحلة التى ولد فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه . ثم يستمر بنا الكتاب فى تتبع النسب النبوى من « معد » إلى « محمد » ويعطينا معالم من نشأته ، وخروجه مع عمه أبى طالب فى تجارته إلى الشام ، وما كان لهذا الركب من أمر مع « بحيرا » الراهب ، وما نصح به الراهب أبا طالب إذ قال له « ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود. فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده » ، ويتناول الكتاب الأحداث التى تتصل بحياة الرسول قبل بعثته ، كحرب « الفجار » التى اشترك فيها وهو فى حوالى الخامسة عشرة من عمره . ثم يقص علينا أمر خروجه فى تجارة خديجة إلى الشام وزواجه منها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وحديث « خديجة » بشأنه مع « ورقة بن نوفل » وبناء الكعبة واختلاف قريش فيمن يضع الحجر الأسود ، وتحكيمهم محمداً فى هـذا ، وما كانت عليه الكعبة قبل البعثة فى مظهرها ومساحتها وصورتها ، وما سبق البعثة من أمور وظواهر كانت كالطلائع لها ، وإلى بعضها أشار القرآن الكريم . أما سيرة الرسول من أول البعثة فالكتاب يتبع منهجاً مفصلا جارياً على نسق الحوادث والغزوات وتتابعها وما نزل فى كل حادثة من قرآن ، وما قيل فيها من شعر ، ومن اشترك فيها من الأشخاص وما أثر عن الرسول فيها من قول أو عمل ، وما صاحبها من التشريع والأحكام ، وما لابسها من العهود والمواثيق ، وما سجل الرسول وأصحابه وأنصاره فيها من ضروب البسالة والإقدام ، وما امتحن به المسلمون أحياناً من بلاء أو هزيمة ، وما وضع الرسول من الأسس والقواعد للدولة الإسلامية

الجـديدة ، وما رسم لهـا من الخطط المستقبلة ، التى تولى تنفيذها خلفاؤه من بعده . وهكذا نجد أنفسنا أمام سجل واف لحياة تلك الشخصية العظيمة ، التى غيرت وجـه التاريخ ، وأخرجت للعالم حضارة إنسانية راقيـة تقوم على دعائم العقيدة والمعرفة والفضيلة والأخوة ، وهـذا السجل يستمد مادته من مصـدر لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفـه وهو القرآن ، ومن الأخبـار التاريخية والقصصية والأدبية التى حفظها الرواة وتناقلوها ، حتى أوصلوها إلى عهد التدوين والتأليف ، وكتاب السيرة النبوية على هذه الصورة يهيء — فى نظرى — أداة من أدوات التربيـة الإسـلامية الناجحة التى تنفع الشبـاب فى دور فتوتهم ورشدهم ، فهى تصلهم بحياة الرسول فى طريقة محببة تجمع القرآن والتاريخ والقصص والأدب . وكل ما تحتاجه أن يقوم باحث حديث فيعرضها من جديد عرضا منظما ، يناسب تفـكير العصر الحاضر ، ويربط بين بعض هذه النواحى والبعض الآخر ، ويمـدها لأن تـكون غذاء صالحـا لعاطفة الشباب الدينية ومعارفه التاريخية وذوقه الأدبى » .

* * *

... هذا هو المقال ، ويشاء الله سبحانه أن ينشر فى الوقت الذى كنت قد فرغت فيه من تأليف الكتاب .

إن الـكاتب يمضى تقريره فيقول : « وكتاب السيرة النبوية على هـذه الصورة يهيء — فى نظرى — أداة من أدوات التربية الإسلامية الناجحة ؛ التى تنفـع الشباب فى دور فتوتهم ورشدهم ، فهى تصلهم بحيـاة الرسول ، فى طريقة محببة ، تجمع بين القرآن ، والتـاريخ ، والقصص ، والأدب . . . »

ثم يمضى فيقول : « وكل ما تحتاجه أن يقوم باحث ـ حديث ـ فيعرضها

من جديد ، عرضاً منظماً يناسب تفكير العصر الحاضر ، ويربط بين بعض هذه النواحي والبعض الآخر ، ويعدها لأن تكون غذاء صالحاً ، لعاطفة الشباب الدينيه ، ومعارفة التار وذوقه الأدبي » .

هـذا هو تقرير الدكتور خلف الله عن سيرة ابن هشام ، وهـذه هي آماله التي يأمل أن يحققها له باحث حديث .

وهو نفس مادار في نفسي ، حين قرأت سيرة ابن هشام . . سألت نفسي : لماذا لا أقوم بإخراج هذا الكتاب النفيس الكريم ، إخراجاً يناسب عقول عصر الفضاء ؟ .

لماذا لا أعرضها عرضاً حديثاً ، لطيفاً ، بعيداً عن الحشو والاسترسال ؟

لماذا لايطلع شبابنا ، على حياة رسول الله ، الحقيقية البعيدة عن الأهواء ؟

كيف يحال بين جيلنا الصاعد ، وبين رسول الله ؟

تالله لأقصن على الناس قصة رسول الله ، بيضاء لا عوج فيها . . .

وكنت أشعر وأنا أقوم بذلك العمل ، أن كل إنسان في هذا العالم يشعر نفس الشعور الذى أعانيه .

كنت أحس أن من الإجرام أن تظل تلك الكنوز الغوالي ، مطمورة ، مقبورة ، لا يصل إليها إلا أهـل البحث والفحص . . . وإلا من له صبر على مصاحبة الكتب القديمة .

إن ذلك النور يجب أن يخرج إلى النـاس ، ليشع إشعاعاته العاليـة ، على قلوبهم ، وعقولهم ، وكيانهم .

فلعلي أكون قد حققت آمالك يا دكتور ، وحققت آمال الجيل الصاعد ، بإخراج الكتاب على هذه الصورة ، التي تجمع بين جلال القديم ، وجمال الحديث .

ولعل الكتاب بوصفه الذى بين أيدينا ، يكون فيه مايرضى نفوسنا جميعاً رجالا ونساء . . . من صدق فى الأداء وفن فى التعبير ؟ .

وأنا أشعر عن يقين أن الكتاب جاء سهلا ، ميسوراً ، جميلا . .

وماذا وراء الجمال ، والسهولة ، والتيسير ؟ .

فالحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شىء لا يستطاع الإحاطة به علما

وكيف يمكن لبشر أن يحيط بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

كيف . . والناس دونه فى كل شىء ؟ .

دونه فى العلم ، فى الخلق ، فى الصفات ، فى أسلوب الحياة ، فى الفهم عن الله ، فى الاستقامة على أمر الله ، فى كل شىء نحن دون رسول الله . . .

فكيف يتكلم الأدنى عن الأعلى ، أو كيف يتكلم الجاهل عن العالم ، أو كيف يرى الأعمى شعاع النور ؟ .

ولكن الذى ينبغى أن يتقرر دائماً ، أن عظمة إنسان ما ، لا تمنع الناس أن يقولوا قولهم فيه ، ولو كانوا هم دونه مقاماً .

ولو أنا وقفنا نتطلع إلى رسول الله ، ثم نقول : مالنا من سبيل إلى فهم ذلك الرجل ، فالأولى لنا ثم الأولى ، أن نصمت . . . لو أنا فعلنا هذا لكنا آثمين .

لأن الله تعالى أمرنا أن نتبع رسول الله ، واتباعه صلى الله عليه وسلم ، لا يتأتى إلا بالإلمام بحياته صلى الله عليه وسلم .

فمن لم يعرف حياته صلى الله عليه وسلم ، لم يستطع أن يتبعه ، فى صغيرة أو كبيرة .

فنحن مأمورون من الله بمعرفة رسول الله ، لأن هذا هو الطريق الأوحد لاتباعه فى أمور الحيـاة .

ومن هنا يلزم أن نتكلم عن رسول الله ، ولو لم نكن فى مقام رسول الله وفى هـذا العصر . عصر الفضاء . . حيث يقف الإنسان مغروراً بعلمـه ، منكراً لله ، ربه الذى خلقه . .

فى هذا العصر تشتد الحاجة إلى رسول الله ، لأنه هو النور الذى يكشف أمامنا حقائق الحياة .

وها هو الإنسان الحديث ، بعلمه ، وذرته ، وصواريخه ، وسفن فضائه ، وكل فتوحاته العلمية الرائعة ، يقف حائراً يسأل : ولـكن أين الحق من وراء هذا كله ؟ لقد انفتحت لنا آفاق السماء ، وسقطت أمامنا حجب المادة ، وأصبح الـكون أداة طيعة فى أيدينا . . . ولـكن ماذا وراء هذا ؟

إن هناك شعوراً ملحاً ، يدق بعنف على قلب الإنسان الحديث ، ويصيح به : ماذا وراء الآفاق ، وماذا وراء الظواهر ، وماذا وراء المـادة ؟

. . . ولا أحـــد يستطيع أن يجيب على تلك الأسئلة إلا رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم . . .

محمد . . وحــــــده . . هو الذى يستطيع أن يتقدم ، ويجيب على أسئلة البشرية فى عصر الفضاء .

نعم .. هو صاحب هذا المقام . وحده ، دون الناس جميعاً .

ولو بعث فيهم الآن ، لقـال لهم : تعالوا أيها الحيارى ، السكارى ، بخمر التكنولوجيا . . . ماهذا الذى منه تعجبون ؟ .

وأين سفينة الفضاء ، ورحلاتكم فى الفضاء ، مهما ارتفعتم عن الأرض ومهما كان عدد دوراتكم حول القمر . . . بل أين أنتم ولو وصلتم إلى الـكواكب

كلها ، ونزلتم بها ، وتنقلتم بينها . . أين أنتم ولو كان هذا حالكم ، من رحلة الإسراء والمعراج ؟

لقد كانت رحلة الإسراء والمعراج ، أكبر رحلة فضاء عرفها الإنسان ، ويعرفها إلى يوم القيامة .

لقد خرج محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فراشه إلى بيت المقدس ليلا ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فالثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، فالخامسة ، فالسادسة ، فالسابعة . . . ثم كان قاب قوسين أو أدنى . . ثم أوحى ربه إليه ما أوحى ... ورأى من آيات ربه الكبرى ، ثم عاد إلى بيت المقدس ، ثم إلى مكة ، حيث عاد إلى فراشه ، وهو لم يزل دافئاً !!! .

في لحظة تم هذا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . وفي هذا الزمن القليل عبر السماوات ، وما وراء السماوات ، وشهد المشاهد العلى ، حتى التقى بربه ، وفرض عليه فروضه ، ثم عاد إلى الأرض كرة أخرى . . .

فهل يتصور أن ترتقي رحلات الفضاء إلى هذا المقام ؟ .

اللهم لا . . . وهذا هو الفارق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين هؤلاء المجانين ، الذين بهرتهم أعاجيب علمهم ، فطار طائرهم في الهواء ، ودار مادار بها حول الأرض ، ثم وقف مبهوراً وأعلن في العالم : لقد درت في الآفاق ، والتمست هذا الذي يسمى الله ، فلم أجد شيئاً[1] !! .

لكن رسول الله ، حين عاد من رحلة فضائه ، لم يقل كما قال هذا المجنون . كلا ولا أنكر وجود الله ـ وحاشاه ـ وإنما أصبح أشد سكينة مما كان .. يحدث الناس بما رأى .

---

(١) نعني بذلك تصريح رائد الفضاء وماأعلنه ونقلتهعنهوكالات الأنباء ، من أنه لم ير الله في رحلته في الفضاء ! .

لم يقل محمد كما قال المذكور .. وإنما نزل إلى الناس يؤدى إليهم ماافترضه الله عليهم .. خمس صلوات فى اليوم والليلة .. وجعل يعلم أصحابه كيف يصلون ؟ !

نزل محمد من رحلته أشد إيماناً بالله ، وأكبر يقينه

نزل يعلن إلى الناس جميعاً أن لا إله إلا الله .. أن اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ..

من هنا تشتد الحاجة إلى محمد ، ليرد إلى البشرية عقولها ، ويعيد إليها صوابها .

وعندما يشتد الظلام ، يلتمس البدر .

إن البشرية لم تكن يوماً من الأيام ، فى حاجة إلى رسول الله ، منها فى هذه الأيام .

نحن فى عصر يموج بالفتن موجاً .. لنظام مادى ، نحواً من ألف مليون إنسان ، تخضع .

الكتلة الغربية ، عالم تمزقه الأوهام ، والمطامع ، لا يعرف الله ، إلا من خلال منظار الثالوث .

والعالم الإسلامى .. هو الآخر .. غارق إلى آذانه فى الخلافات والعصبيات والشهوات .

هذ هو العالم الآن ... مابين مغرور بعلمه ، ومفتون بعقله ، أو مقلدين كما يهوى ...

فما أشد حاجه العالم الآن إلى محمد ، رسول الله صلى الله عليه وسلم .

البشرية تريد أن تعرف محمداً ، وهو ينادى : لا إله إلا الله ..

يسمعها الشرق ، لعله يرجع ...

ويسمعها الغرب . . لعله يصحح عقائده ...

ويسمعها المسلمون ، لعلهم يتحدون ، وينبذون خلافاتهم ، ويتجمعون حول رسولهم .

العالم كله ينادى : أين محمد ؟.. أين رسول الله ؟.

فكان لزاماً .. أن نؤدى ذلك الواجب ، وأن نتقدم إلى الناس كافة ، ونحن نقول : هذا محمد .. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم !! .

محمود شلبي

موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

الهجرة

غزوة أحد

غزوة الخندق

رقم الصفحة

صلح الحديبية

عمرة القضاء

قبل فتح مكة

فتح مكة

غزوة تبوك

رقم الصفحة